بسم الله الرحمن الرحيم

شعارنا الوحيد إلى الإسلام من جديد

المجلد ٦٣

مؤسسة الصحافة والنشر

البعث الإسلامي

مجلة إسلامية شهرية جامعة

أبريل ، مايو ٢٠١٧م — April, May 2017

العدد الأول - المجلد الثالث والستون – رجب ، شعبان ١٤٣٨هـ

ندوة العلماء

تأسست ندوة العلماء ودارالعلوم التابعة لها على مبدأ التوسط والاعتدال، والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع،وبين الدين الخالد الذي لا يتغير، والعلم الذي يتغير ويتطور ويتقدم ، وبين طوائف أهل السنة التي لا تختلف في العقيدة والمنصوص، وقامت من أول يومها على الإيمان بأن العلوم الإسلامية علوم حية نامية ، وأن منهاج الدراسة خاضع لناموس التغير والتجدد ، فيجب أن يتناوله الإصلاح والتجديد في كل عصر ومصر ، وأن يزاد فيه ، ويُحذف منه بحسب تطورات العصر ، وحاجات المسلمين وأحوالهم.

الإمام العلامة الشيخ السيد أبوالحسن علي الحسني الندوي (رحمه الله)

أنشأها

فقيد الدعوة الإسلامية

الأستاذ محمد الحسني رحمه الله تعالى

في عام:١٣٧٥هـ -١٩٥٥م

رئاسة التحرير

سعيد الأعظمي الندوي

واضح رشيد الندوي

مساعدا التحرير:

محمد فرمان الندوي

محمد عبد الله الندوي

المراسلات

البعث الإسلامي

مؤسسة الصحافة والنشر

ص.ب.٩٣ لكناؤ (الهند) الفاكس: ٢٧٤١٢٢١-٢٧٤١٢٣١ — ٠٥٢٢

AL-BAAS-EL-ISLAMI

MAJLIS - E - SAHAFAT -WA- NASHRIYAT P. O. BOX: 93 Taigor Marg,
Lucknow. Pin:226007 U. P. (India) Fax: 0522-2741221,2741231
Mob: 9889336348, 8400476826 Email: albaas1955@gmail.com

محتويات العدد

العدد الأول - المجلد الثالث والستون – رجب ، شعبان ١٤٣٨هـ

❖ أخي القارئ : س . الأعظمي ٣

❖ الافتتاحية :

دور العلم والإيمان الوحيد في وجه الطغيان العنيد سعيد الأعظمي الندوي ٤

❖ التوجيه الإسلامي :

موانع الاستفادة من القرآن الكريم سماحة العلامة الشيخ السيد أبي الحسن الحسني الندوي ٩

جوانب بلاغية في سورة آل عمران د/ راشد عبدالله الفرحان ١٤

الدراسات القرآنية أمام العقل البشري د . جمال الدين الفاروقي ٢١

❖ الدعوة الإسلامية :

هل يستطيع الإنسان أن يعيش بلا دين ؟ الشيخ الطاهر بدوي الجزائري ٢٨

رابعة العدويّة : سيرتها – كلماتها – ومناجاتها د . خالد السعد ٣٣

❖ الفقه الإسلامي :

زراعة الأعضاء البشرية في ضوء الشريعة الإسلامية د. خورشيد أشرف إقبال الندوي ٣٨

❖ دراسات وأبحاث أدبية وتاريخية :

بعض أهم الأمكنة في السيرة النبوية العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي ٥١

إطلاق لفظة " الحجة " في مصطلح الحديث الأستاذ أبو أنس رفيع الله المَرْوَتِيْ ٥٧

السيرة العطرة لأمهات المؤمنين : نموذج للمرأة المسلمة د. محمود حافظ عبد الرب مرزا ٦٦

جهود ندوة العلماء لإصلاح المنهج الدراسي ..... الأستاذ عبيد الرحمن الندوي ٧٣

التجليات القرآنية في شعر محمد إقبال الباحث محمد شمشاد عالم ٧٩

مساهمة مولانا آزاد و الصحافة الأردية ..... . الأخ محمد فضيل الندوي ٨٩

❖ صور وأوضاع :

استغلال العصبيات الدينية لكسب الفوز في الانتخاب عمل غير جمهوري الأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي ٩٣

إلى الإسلام من جديد :

إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين محمد فرمان الندوي ٩٧

❖ إلى رحمة الله تعالى :

١. العالم الكبير الشيخ ملك عبد الحفيظ إلى رحمة الله تعالى قلم التحرير ٩٩

٢. الدكتور صفدر سلطان الإصلاحي في ذمة الله تعالى " " " ٩٩

٣. السيد شهاب الدين في ذمة الله تعالى " " " ١٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي القارئ !

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كيف نستطيع أن نحمد الله سبحانه وتعالى على ما وفق إليه عباده المخلصين من القيام بإصدار مجلتكم البعث الإسلامي باستمرارية وانتظام وبإبلاغ رسالتها إلى جميع أنحاء العالم ، وهي تعبر عن أهداف ندوة العلماء التي تأسست في عام ١٨٩١م على يد نخبة من العلماء المخلصين ممن شرفهم الله تعالى بالجمع المتزن بين حسنة الدنيا وحسنة الآخرة (رحمهم الله تعالى) .

وقامت مجلة البعث الإسلامي بتجديد دورهم المغبوط منذ أول عدد صدر منها ، وذلك في شهر صفر الخير لعام ١٣٧٥هـ الموافق شهر أكتوبر لعام ١٩٥٥م ، وكان سماحة العلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي هو الرمز الأول والأخير لفكرة البعث الإسلامي ، ولولا دعاؤه وتشجيعه ودعاء سعادة الدكتور العلامة السيد عبد العلي الحسني شقيق سماحته (رحمهما الله تعالى) ، ولولا التعاون الغالي من العلامة السيد محمد الرابع الحسني الندوي (رئيس ندوة العلماء اليوم) لكانت البعث الإسلامي خبر كان ، ولم تشهد النور ، ولكن هذه المجموعة الخيرة المشرفة من هؤلاء العلماء هي في الواقع البنية التحتية لهذه المجلة والقاعدة الصلبة لبنائها .

وقد استكملت المجلة بحمد الله تعالى وتوفيقه ٦٢/ عاماً ، وذلك لا شك استبشار عظيم للعاملين في المجلة وقرائها الكرام ، بإذن من الله الكريم .

وبهذا العدد سيبتدئ – بمشيئة الله تعالى – عامها الثالث والستون ، ونتمنى أن نقوم بنشر خيراتها بصفة مستمرة ، وبملء فراغ في الصحافة الإسلامية العربية حسب النظام القائم ، بعونه تعالى وتوفيق منه .

والله ولي التوفيق والسداد .

سعيد الأعظمي
١٤٣٨/٦/١هـ

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

دور العلم والإيمان الوحيد في وجه الطغيان العنيد

إن المسلمين يشكلون اليوم نحو ربع سكان العالم ، وعندهم إعدادات من العلم والثقافة واسعة ، وهم يملكون حضارة إنسانية عالية ، وصناعات وتقنيات لا نظير لها في أي عصر من العصور السابقة ، ولديهم إمكانيات ضخمة من الوسائل والطاقات الكونية ، وهم يملكون مدارس وجامعات ومؤسسات علمية واسعة النطاق قد لا يأتي عليها الحصر ، وعندهم مراكز للعلوم والمعارف وكثرة العاملين في كل مجال من مجالات العلم والدين والآداب والثقافات والمعارف ، ولهم اطلاع واسع على التاريخ العالمي من جميع النواحي ، ولكنهم مستهينون من خلال المجتمعات والدول العالمية الكبرى ، وفاقدون وزنهم في ميزان القوى المادية والقيادية .

فما هو السبب في هذا الضعف والوهن ؟

ولعل الحديث الذي رواه أبو داود عن ثوبان رضي الله عنه يلقي ضوءاً كاملاً على الإجابة على هذا السؤال : (يوشك الأمم أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها فقال قائل : أو من قلة نحن يومئذ ، قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن ، فقال قائل يا رسول الله : وما الوهن ، قال : حب الدنيا وكراهية الموت) (أبو داود ، كتاب الملاحم ، رقم ٤٢٩٧ ، ومسند أحمد ، ص / ٢٧٨) .

أفليست الأمم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً تتداعى على بلاد المسلمين ودولهم ، في كل مكان ، وتنهب ثرواتهم وتذبّح أولادهم ونساءهم ، وتدمر مساجدهم ومنازلهم ومدنهم ، وهل حدث ذلك ولا يزال يحدث من غير سبب ؟ لا بل إن عدد المسلمين كثير ، وثرواتهم غزيرة ووسائلهم قوية وكبيرة ، ولكن مهابتكم الإيمانية قد زالت ، وأصبحوا كالأيتام على

مائدة اللئام ، لأنهم أصيبوا بداء عضال ، ومرض الكسل والوهن ، أصيبوا بحب الدنيا وكراهية الموت .

لقد تحققت هذه النبوة اليوم بكاملها وعمت في المجتمعات التي تسمى إسلامية ، وأنى لها الانتماء إلى الإسلام ، وأي ميزة تميزها عن المجتمعات المادية الغارقة في بحر من المعاصي والسيئات والمنكرات ، وقد آن لها أن تتذكر أن الغرب قد انتقل الآن من الغزو الفكري والاجتماعي إلى غزو عسكري شامل بغاية من الشدة وبوسائل ضخمة وآليات منوعة لا يحصرها العد والحد ، وما يجري اليوم في أراضي وبلاد المسلمين من تهجير وطرد وإخراج أدل دليل على أن النوايا تنتقل من سيئ إلى أسوأ في هدم أسس الدين ، وتقويض دعائم الإيمان واليقين الراسخة في النفوس .

إن أعداء الإسلام استولوا على المراكز السياسية والاجتماعية وعلى ما يسمونه : الأمم المتحدة ، ومن خلال ذلك يفرضون حصاراً اقتصادياً يشمل العالم الإسلامي وبلدان الأقليات المسلمة ويقومون – تحقيقاً لأحلامهم المزعجة – بتدريب ملايين من الغزاة والمقاتلين من جنسيات مختلفة ضد الأمة المسلمة التي هي أمة واحدة ، وتصفية وجودها من كل مكان أو تغييرها بأمة لا شأن لها بالغاية التي بعثت من أجلها إلى العالم البشري ، يفعلون ذلك لمجرد تخلية الجو وانتهازه لتنفيذ المخططات الهدامة في كل بلد يوجد فيه انتماء إلى الإسلام .

لو لا أن هؤلاء المساكين يعرفون أن طبيعة هذا الدين تتفق وطبيعة الإنسان في كل زمان ومكان بدون أي استثناء لما تظاهروا بهذه الطبيعة الحاقدة ، ولم يقوموا بوضع طاقاتهم من كل نوع فيما لا ينفعهم ، ذاك أن النقمة بغير سبب لا مبرر لها في أي شريعة حتى في شريعة الغابات والجهل والأنانيات ، ولكنهم ملحون على تنفيذ مخططاتهم ضد هذه الأمة المسلمة ، والداعية إلى احترام الإنسانية وإنقاذها من كل مهلكة وإتاحة الفرص لها لقيادة العالم .

وهنا تكمن نقطة الخلاف في القيادة العالمية التي نالتها خير أمة أخرجت للناس ، وحُرمتها الأمم البائدة ، ذلك لأنها حق واضح استحقته أمة الإسلام وأخذت زمام هذه القيادة بيدها ، وذاك لأنها سلكت الطريق

المبين والمعين لها من خلال تعاليم الإسلام وتربية النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد أطلق الله سبحانه نداءً إلى الناس جميعاً فقال : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) ، فكانت التقوى هي المقياس الأصيل لمن يصلح لقيادة العالم البشري بكامله ، ومعلوم أن الذين لم يبلغوا هذه المكانة العالية إنما يريدون أن يعرقلوا مسار أهل القيادة ويكيدون ليشغلوهم بمشكلات الحياة ومصايب الدهر وأمراض القلوب ، مما يجعلهم يفقدون منصب القيادة ، ويصابون بالضعف والوهن .

وقد تحدث الله سبحانه وتعالى في كتابه عن عبده الخاضع الأواب، داود عليه السلا مإلذ يأعطاه ملكاً واسعاً ، جزاء ذكره المستمر لله تعالى والخضوع لأوامره ، فكان ملكاً خاضعاً خاشعاً أوّاباً لله تعالى ذا قوة في العلم والعمل ، فرضيه الله تعالى وسخر له الجبال والطير محشورة كل له أواب ، وشدد ملكه وآتاه الحكمة وفصل الخطاب ، يقول سبحانه : (ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا ٱلأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلإِشْرَاقِ . وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ . وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ) (سورة ص : ١٦ – ٢٠) .

إن قليلاً من التدبر والتأمل في الآيات يعطينا صورة لعبد من عباد الله الذي اتصل بربه ووثق بوعده وشغل نفسه بذكره ، فأكرمه الله تعالى بالقوة العظيمة في العلم والعمل ، وسخر له الجبال التي تعتبر أقوى قوة على سطح الأرض ، فكانت تسبح لله تعالى معه ليل نهار صباح مساء ، جاء فيما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين أنه قال : (أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى ، وإنه كان أواباً) .

إن عبد الله الأواب ما فاز بهذه المكانة العالية من الجمع بين قوة الحكم وجائزة التسخير وعظمة الحكمة وفصل الخطاب إلا لأنه اتصل بربه تعالى اتصالاً مباشراً وعاش عبداً ذاكراً أواباً ، واستمر في إيثار حب الله تعالى والخضوع أمامه على حب الدنيا وحب الأهل والمال وقوة الملك ،

إنه جمع بكل توازن بين هذه المعطيات كلها ولم يقصر في استخدام قوته العلمية والعملية واستعمال حكمته وفصل خطابه مما له علاقة بداخل المرء بقلبه وعقله وعلمه وذكائه وأدب لسانه وبلاغة كلامه ، وكلما عاش الإنسان مثل هذه العيشة المرضية عند الله تعالى ، استقبلته العزة والقوة والسعادة والعلم في كل مكان ، ومثله يتحلى بتقوى الله ونصر الله ، والتوفيق الكامل من الله تعالى لكل عمل وفي كل مناسبة ، فلا يخشى إلا من الله ، ولا يلين إلا لله ، ولا يعيش إلا لله ، ولا يخاف أي قوة مادية مهما بلغت من القوة آخر مبلغ ، ولا يبالي بأي ملك أو سلطان ، إنما همه الله وحده ، ورضاه وحده ، ونصره وحده .

وبالمناسبة نتذكر قصة للجراءة الإيمانية والشجاعة الدينية بالرجعة قليلاً إلى الوراء إلى فجر التاريخ الإسلامي حيث نشاهد للمحة واحدة واقع الاستقامة والصمود في وجه جلال الباطل الزائف وعظمة السلطة الكاذبة، والملوكية الزائلة .

ذلك أن سعد بن وقاص رضي الله عنه أرسل ربعي بن عامر عبر فتح المدائن إلى رستم قائد قوات الفرس وأميرهم المرهوب الجانب ، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي والحرير وأظهر اليواقيت واللآلي الثمينة العظيمة وكان لابساً تاجه الثمين ومتحلياً بأمتعة ثمينة أخرى ، وكان جالساً على سرير من ذهب .

فدخل عليه بثيابه الصفيقة وترسه وفرسه القصيرة ، وما زال راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ، فقالوا له : ضع سلاحك ، فقال : إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت ، فقال رستم : ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها ، فقالوا له : ما جاء بكم ، فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

بمثل هذه الشجاعة العظيمة كان المسلمون يواجهون الحكومات الكبرى والقوات المادية ، وبمثل هذه النظرة الإيمانية كانوا ينظرون إلى

الدنيا وزخارفها ، وبمثل هذا التوكل والثقة بوعد الله تعالى كانوا يواجهون الملوك والعظماء ، وكانوا مؤمنين ، متمتعين بوحدة الأمة الواحدة ، وكانت علاقتهم بربهم قوية وطيدة فكانوا واثقين بربهم وبنصره ووعده ، (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذينَ آمَنُواْ منْكُمْ وَعَملُواْ ٱلصَّالحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُمْ فى ٱلأَرْض كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذينَ من قَبْلهمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ ٱلَّذى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّن بَعْد خَوْفهمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنى لاَ يُشْرِكُونَ بى شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذٰلكَ فَأُوْلَـٰئكَ هُمُ ٱلْفَاسقُونَ) .

أرأيتم – أيها القراء الكرام – هذه الضآلة في الجسم والثياب والفرس، ثم تلكم الشجاعة النادرة والثقة بالله تعالى بالنصر الذي رافقه طوال هذه اللحظات الحرجة ، والموقف الدقيق الذي وقفه من الجهر بكلمة الله وإعلان كبريائه بأسلوبه المتحدي أمام رجل كبير كان قد بلغ في الغطرسة والاستكبار مبلغاً أخيراً ، فما هو الذي فعل هذا السفير الإسلامي الذي كان مبعوثاً إليه ، والذي كان يتفجر إيماناً وعقيدةً وثقة وقوة من عند الله سبحانه ، وماذا كان من ذلك الرجل الفارسي الأمير ذي الهيبة الكبيرة والحاكم الطاغية ؟ إنه لم يلبث إلا أن يغادر بلاده إلى مهجر ، ويترك للفاتح المؤمن بلاده وعباده لكي يجري حكم الله وأوامر الله وشريعة الله تعالى في هذه البلاد ويتمثل فيها حكم الإسلام بواقعه العملي ليس غير .

فإذا اجتمعت قوة الإيمان الصادقة الراسخة وقوة الحكم والحكمة وفصل الخطاب وقوة اللسان والبيان في فرد أو جماعة فإن ذلك يأتي بالعجائب والغرائب التي تساعد في إحداث الثورات على مخادع الكفر والنفاق ، ويكفي لتغيير النفوس وتوجيهها من الرذائل إلى الفضائل ، ومن متاهات الجهل والضلال إلى مساحات العلم والرشاد ، وهنالك تتوطد الصلة بين الله والعباد ، ويحدث انقلاب في الطبائع والمجتمعات والحكومات .

(وَمَا ذٰلكَ عَلَى ٱللَّه بعَزيز) .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

سعيد الأعظمي الندوي
١٤٣٨/٥/٣٠ هـ
٢٠١٧/٣/١ م

التوجيه الإسلامي

موانع الاستفادة من القرآن الكريم

بقلم : سماحة العلامة الشيخ السيد أبي الحسن الندوي (رحمه الله)

لقد ذكر القرآن الكريم موانع الهداية والاستفادة من القرآن الكريم مع ذكر شقاء الكفار، وحرمانهم، مما يدل على أن هذه الصفات والأخلاق والمعتقدات التي يتسم بها الكفار ويصرح بها القرآن، والتي تقاوم ثورة القرآن الروحية والعقيدية وتأثيره الإصلاحي العظيم، إذا تحققت في المسلمين فإنها تقع حاجزاً بينهم وبين القرآن، وتمنعهم من الاستفادة به، ونذكر هذه الصفات التي نص عليها القرآن بشيئ من الاختصار :

١. الكبر :

إن من أقوى أسباب الحرمان من آثار التعاليم النبوية ونتائجها وبركاتها، ومن سعادة اتباعهم والاقتداء بهم هو الكبر المنتفخ والعزة الكاذبة، والاعتداد الأجوف بالنفس وما يشبه ذلك من أمراض نفسية جاهلية.

فتارة يكون هذا الاستكبار يمنع من قبول الحق والإذعان له مباشرة ، إذ أن ذلك يدعو صاحبه إلى التخلي عن جاهه وسلطانه ، وتقاليده الجاهلية وطقوسه ، والحرمان من كثير من الفوائد المادية الظاهرة ، ويدعوه إلى ترك الحياة المطلقة من كل قيد ، حياة الهوى والحرية الكاملة ، والتقيد بالحياة الشرعية ، والالتزام بالحدود والأحكام والضوابط .

وتارة أخرى يواجه كثير من الناس عنتاً ومشقة في تغيرهم ، وانقلاب سيرتهم ، ويحول دونهم الاستكبار الذي يحملهم على الجحود والإنكار ، وهؤلاء الذين تصفهم هذه الآيات التالية :

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ) .[١]

[١] سورة الأعراف : ١٤٦ .

(وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) .[1]

(ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هَـٰذَآ إِلاَّ قَوْلُ ٱلْبَشَرِ).[2]

وتارة يمنعهم الاستكبار والجحود بما يرون من حالة الأنبياء المادية الظاهرة ، وقلة ذات يدهم ، من الاعتراف برسالتهم وتعاليمهم ، ويرون في اتباعهم والاقتداء بهم غضاضة وعاراً ، ولقد قال فرعون وهو يستكبر عن رسالة موسى – عليه السلام – :

(أَمْ أَنَآ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلاَ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ) .[3]

وقال كفار قريش :

(وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) .[4]

وتارة تقع بشرية الرسول هي السبب المانع – في نظرهم – عن قبول الحق الذي جاء به :

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَىٰ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) .[5]

(وَقَالُواْ مَا لِهَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلأَسْوَاقِ لَوْلآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً) .[6]

وأحياناً يعتذرون – مستكبرين – عن قبول الحق بحالة أتباعه الاقتصادية الضعيفة ، ومهانة حرفهم ، وضعة أنسابهم ، وخساسة أصلهم ، ويجعلون هذا هو المانع لهم من الاشتراك في الجماعة المسلمة :

---

[1] سورة الجاثية : ٧ – ٨ .
[2] سورة المدثر : ٢٣ – ٢٥ .
[3] سورة الزخرف : ٥٢ – ٥٣ .
[4] سورة الزخرف : ٣١ .
[5] سورة التغابن : ٦ .
[6] سورة الفرقان : ٧ .

(فَقَالَ ٱلْمَلأُ ٱلَّذينَ كَفَرُواْ من قوْمه مَا نَرَاكَ إلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إلاَّ ٱلَّذينَ هُمْ أَرَاذلُنَا بَادىَ ٱلرَّأْى وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا من فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذبينَ) .[1]

افترضوا لأنفسهم – لأجل إقبال الدنيا عليهم وجاههم ومواتاة الحظ لهم في المال والمتاع – أنهم هم المستحقون لكل خير ، وأنه لن يكون خيراً ما لم يسبق إلى أيديهم ويحضر لديهم :

(وَقَالَ ٱلَّذينَ كَفَرُواْ للَّذينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إلَيْه وَإذْ لَمْ يَهْتَدُواْ به فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إفْكٌ قَديمٌ) .[2]

هذه هي الأسباب التي يكون بها مترفوا القرية وأغنياؤها وذوو الأموال الطائلة فيها أسبق الناس إلى تكذيب الأنبياء ومعارضة دعوتهم ورسالتهم وأسبقهم إلى الاستطالة والسطو والإجرام :

(وَمَآ أَرْسَلْنَا فى قَرْيَة مِّن نَّذير إلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إنَّا بمَآ أُرْسلْتُمْ به كَافرُونَ) .[3]

(وَكَذٰلكَ جَعَلْنَا فى كُلِّ قَرْيَة أَكَابرَ مُجْرميهَا ليَمْكُرُواْ فيهَا) .[4]

وعلى كل فإن الاستكبار – أياً كان سببه والدافع إليه – ومهما كانت أشكاله ومظاهره مختلفة – يقع سداً وحاجزاً سميكاً دون التمتع بالقرآن والاستفادة منه .

إن الشرط الأساسي في قبول تعاليم القرآن، وتطبيقها على النفس، وتحكيمها في الحياة وفي الإذعان لقيادة الأنبياء وهدايتهم ، هو التواضع، والتسليم ، والرضا والإيثار :

(فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجدُواْ فىٓ أَنْفُسهمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْليماً) .[5]

٢. المجادلة :

إن الجدال والمراء في القرآن بغير ما دليل وبرهان ، ومغالبته بذلاقة اللسان ، وسلاطة البيان ، والإدلاء بالآراء فيه من غير حجة وسلطان ،

---

[1] سورة هود : ٢٧ .
[2] سورة الأحقاف : ١١ .
[3] سورة سبأ : ٣٤ .
[4] سورة الأنعام : ١٢٣ .
[5] سورة النساء : ٦٥ .

يحرم من هدايته ويمنع من رفده وفيضه وينم عن كبر مستور في الصدور :

(إِنَّ ٱلَّذينَ يُجَادلُونَ فيٓ آيَات ٱللَّه بغَيْر سُلْطَان أَتَاهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالغيه فَٱسْتَعذْ بِٱللَّه إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّميعُ ٱلْبَصيرُ) . [1]

(وَٱلَّذينَ سَعَوْا فيٓ آيَاتنَا مُعَاجزينَ أُوْلَـٰئكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْز أَليمٌ) . [2]

(ٱلَّذينَ يُجَادلُونَ فيٓ آيَات ٱللَّه بغَيْر سُلْطَان أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عندَ ٱللَّه وَعندَ ٱلَّذينَ آمَنُواْ كَذَٰلكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْب مُتَكَبِّر جَبَّار) . [3]

(وَكَذَٰلكَ جَعَلْنَا لكُلِّ نبيٍّ عَدُوّاً شَيَاطينَ ٱلإِنْسِ وَٱلْجنِّ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْض زُخْرُفَ ٱلْقَوْل غُرُوراً) . [4]

٣. الكفر بالآخرة وعبادة المادة :

إن الكفر بالآخرة من بين معتقدات الكفر من أشد الموانع عن التأثر بالقرآن الكريم والاستفادة منه ، لأن أساس القرآن الأول في ترغيبه وترهيبه ، ومواعظه وإصلاحاته ، هو الإيمان بالآخرة ، إنه يحذر من عواقب الآخرة ، ويطمح في ثوابها ونعائمها ، ويقدم جميع المعلومات اللازمة لهذه الرحلة الخطيرة ، ويدل على منازلها ويضيئ طريقها ، ويعطي عنها تعليماته وإرشاداته ، ولأجل ذلك فإن الذين يرجون الآخرة ، ويظنون أنهم ملاقوها ، لا يمكنهم ابداً أن يستغنوا :

(وَٱلَّذينَ يُؤْمنُونَ بِٱلآخرَة يُؤْمنُونَ به وَهُمْ عَلَىٰ صَلاَتهمْ يُحَافظُونَ) . [5]

أما الذين لا يؤمنون بالآخرة أو يؤمنون بها ولكن رانت على قلوبهم الدنيا واستحوذت عليهم المادة ، ولا ينظرون في جميع قضايا الحياة إلا النظرة المادية البحتة ، هؤلاء لا ينفعهم القرآن ولا يؤثر فيهم .

(وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذينَ لاَ يُؤْمنُونَ بِٱلآخرَة حجَاباً مَّسْتُوراً. وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبهمْ أَكنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفيٓ آذَانهمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْآن

---

[1] سورة المؤمن : ٥٦ .
[2] سورة سبأ : ٥ .
[3] سورة المؤمن : ٣٥ .
[4] سورة الأنعام : ١١٢ .
[5] سورة الأنعام : ٩٢ .

وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً) .[1]

(إِنَّ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .[2]

(فَٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ) .[3]

(فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا . ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ) .[4]

إن النظرة المادية المسيطرة عليهم تجعلهم من الغباوة والبلادة بمكان حيث لا تعمل عقولهم في غير الأشياء المادية ، بل تتعلق دونها وينكرون بما وراءها :

(إِنَّ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ) .[5]

(بَلِ ٱدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ) .[6]

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) .[7]

وشيئ آخر لا يخص الكفار بل يعمهم وغيرهم ، هو الاستدلال بالآيات المتشابهة على الأهواء والأغراض الشخصية وإضلال الناس بالتحريفات والتأويلات الباطلة ، الذي لا يكون الدافع إليه إلا زيغ القلوب وفساد النوايا :

(هُوَ ٱلَّذِيۤ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ ٱللَّهُ وَٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ).[8]

---

[1] سورة بني إسرائيل : ٤٥ – ٤٦ .
[2] سورة النحل : ١٠٤ .
[3] سورة النحل : ٢٢ .
[4] سورة النجم : ٢٩ – ٣٠ .
[5] سورة يونس : ٧ .
[6] سورة النمل : ٦٦ .
[7] سورة الروم : ٧ .
[8] سورة آل عمران : ٧ .

جوانب بلاغية في سورة آل عمران

بقلم : معالي الشيخ الدكتور راشد عبد الله الفرحان*

الدعوة إلى الوحدة والتمسك بالدين

١٠٢ (يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِه وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ) .

(حَقَّ تُقَاتِه) أداء ما يلزم العبد على قدر طاقته ، فكان قول الله تعالى (مَّا ٱسْتَطَعْتُمْ) مفسراً لـ (حَقَّ تُقَاتِه) .

ثم إنه تعالى أمرهم بما هو كالأصل لجميع الخيرات وإصلاح المعاش والمعاد ، وهو الاجتماع على التمسك بدين الله واتفاق الآراء ، فقال :

١٠٣ (وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِه إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

تفرقوا – تتفرقوا

(تَفَرَّقُواْ) مضارع مجزوم ، وعلامة الجزم حذف النون ، والواو فاعل ، وحذف من الفعل إحدى التائين لأنه خطاب للأمة الإسلامية ، على عكس ما جاء في سورة الشورى (تَتَفَرَّقُواْ) التي جاء الكلام فيها على أمم مختلفة ، وشرائع متعددة ، ذكر منها شريعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، لأنها أمم متطاولة على مدى التاريخ ، لذلك جاء بالصيغة التي هي أطول من آل عمران التي هي أمة واحدة .

١٠٥ (وَلاَ تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

وجاءهم البينات – ما جاءتكم البينات

(وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ) وفي الاية ٨٦ من سورة آل عمران (كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَٱللَّهُ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

* وزير الأوقاف والشئون الإسلامية في دولة الكويت سابقاً .

ٱلظَّالمينَ) وفي سورة غافر (لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَاتُ من رَّبِّى) وفي سورة البقرة (فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

يأتي الفعل مذكراً والفاعل مؤنثاً جوازاً ، ولما كانت البينة ليست مؤنثاً حقيقياً لذا جاز تذكيرها وتأنيثها (مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ) وذلك إذا دلت الآيات على ما فيه لفظ التأنيث كالنبوءات ، ومثل ذلك ما جاء في سورة البقرة (جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ) ، أما ما جاء بالتذكير مثل (وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ) فالبينات هنا أتت بمعنى الأمر والنهي ، والتذكير فيه معنى القوة والشدة ، ومثله ما جاء في آل عمران الآية (٨٦) والآية التي معنا .

١١٧ (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فى هـٰذه ٱلْحَيَاة ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فيهَاصِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

(صِرٌّ) الصِّر التصويت من الحصى والحجارة ، ومنه صرير الحذاء .

التشبيه التمثيلي

فقد شبه ما أنفقوا في ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعود إليهم نفع ما ، بحرث كفار ضربته صرٌّ فاستأصله فلم يبق لهم فيه منفعة ، وهو من التشبيه المركب .

أنفسهم يظلمون – كانوا أنفسهم يظلمون

آية آل عمران نزلت في المعاصرين لعهد النبوة ، فورد الإخبار مساقاً لحالهم ، فساق الكلام بدون كانوا التي تفيد الماضي من الزمان كآية النحل إخبار عمن تقدم زمانهم يبين قوله تعالى (كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) .[1]

الملائكة تثبت المؤمنين

١٢٦ (وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ) .

بعد أن ذكر الله سبحانه إمداد المؤمنين بثلاثة آلاف من الملائكة ثم بخمسة آلاف مسوّمين ، أي معلمين بعلامة مميزة ، وغاية الإمداد التكثير والتثبيت ، ولم يثبت أن ملكاً قتل كافراً في المعركة ، والذين

[1] النحل : ٣٣ .

قتلوا الكفار من الصحابة معروفون بالاسم ، ولذلك قال الله تعالى في هذه الآية (وَمَا جَعَلَهُ) أي الإمداد (إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ) .

قلوبكم به – به قلوبكم

قدم وفي سورة الأنفال (وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) ، مقصود الآيتين واحد في الموضعين من حيث المعنى ، وهما لقوم بأعيانهم وهم أهل بدر رضي الله عنهم ، فآية آل عمران جاءت البشارة لمن هدى من الطائفتين المتحاربتين لأولياء الله المؤمنين ، فجيئ بضمير خطابهم متصلاً بلام الجر ، فقال (بُشْرَىٰ لَكُمْ) وكون قلوبهم هي المطمئنة فقدمت القلوب على المجرور اعتناء وبشارة ليمتاز أهلها ممن ليس لهم نصيب ، أما آية الأنفال فلم يتقدم فيها ذكر لغير المؤمنين فلم يحتج إلى ذلك ، وأيضاً فآية الأنفال قد تقدم فيها ما يفيد البشارة (وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ) .[1]

ختام الآية من عند الله العزيز الحكيم

جاءت آية الأنفال (٧) المشابه لهذه الآية مؤكدة بأن في ختامها (إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) لتدل على ما تقدمها من وعود عظيمة وجليلة ، لم يتقدم آية آل عمران بمثلها لذلك وردت الصفتان دون توكيد ، وجاء كل على ما يتناسب وسياق الآيات قبله .

١٣٣ (وَسَارِعُوۤاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) .

سارعوا – سابقوا

قال الله تعالى في سورة الحديد : (سَابِقُوۤاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)[2] المسارعة أقل من المسابقة لوجود كلمة السماوات في آية آل عمران ، وهي أقل من السماء الواردة في سورة الحديد ، لذلك ناسب أن تجيئ آية الحديد بالمسابقة لكثرة المتجهين إلى الجنة التي عرضها كعرض السماء .

---

[1] الأنفال : ٧ .
[2] الحديد : ٢١ .

١٣٦ (أُوْلَـٰئِكَ جَزَآؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّنْ رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلأَنْهَـارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ) .

ختام الآية

ونعم أجر العاملين – نعم أجر العاملين

جاءت آية آل عمران في ختامها بالواو عطفاً على الأوصاف المتقدمة في الآيات التي قبلها (وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ، وَٱلَّـذِينَ إِذَا فَعَلُـوا۟ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْـتَغْفَرُوا۟ لِـذُنُوبِهِمْ) ناسب ذلك العطف بالواو المؤذنة بالتعدد والتفخيم ، بينما في سورة العنكبوت (وَٱلَّذِينَ آمَنُـوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ) .[1]

١٤٤ (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَّـاتَ أَوْ قُتِـلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ ٱللَّهَ شَـيْئًا وَسَـيَجْزِى ٱللَّـهُ ٱلشَّاكِرِينَ) .

وسيجزي الله الشاكرين – وسنجزي الشاكرين

١٤٥ (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَـوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ ٱلآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّاكِرِينَ) .

البيان

جاء في الآية الأولى (فَلَنْ يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّاكِرِينَ) تكلم بضمير الغائب ، أما الآية التي بعدها (وَسَنَجْزِى ٱلـشَّاكِرِينَ) بالإسناد إلى ضمير المتكلم ، (نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى) .

ومن يرد ثواب الآخرة – ومن أراد الآخرة

قال الله تعالى في سورة الإسراء : (وَمَنْ أَرَادَ ٱلآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَـعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا) ،[2] عندما تحدث عن الحياة الدنيا قال (وَمَنْ يُرِدْ) لأن إرادة الثواب تتكرر دائماً والشيئ المتكرر جاء به

---

[1] العنكبوت : ٥٨ .
[2] الإسراء : ١٩ .

بالمضارع ، أما في سورة الإسراء (أَرَادَ) فقد جاء بالفعل الماضي لأن الآخرة واحدة وهي تراد ، وكذلك لتحقق الوقوع .

١٥٧ (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) .

قتلتم في سبيل الله أو متم – ولئن متم أو قتلتم

١٥٨ (وَلَئِنْ مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللهِ تُحْشَرُونَ) .

قدم القتل في سبيل الله على الموت لأنه أشرف وأكثر أجراً عند الله، أما في الآية الثانية فلأن الموت على الفراش هو الأعم والغالب قدم الموت، ولهذا لم يقترن القتل فيها بعبارة (فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ) التي جاءت في الأولى .

ختام الآية

لما كان القتل والموت للمسلمين والكفار في المجتمع فيه ظالم ومظلوم حيث يقتص الظالم من المظلوم ، لذا جاء التعبير (لَإِلَى ٱللهِ تُحْشَرُونَ) .

١٦٤ (لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤمنينَ إِذْ بَعَثَ فيهمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسهمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِنْ قَبْلُ لَفى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) .

وفي سورة الجمعة (هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ) .

رسولاً من أنفسهم – رسولاً منهم

(مِّنْ أَنْفُسِهِمْ) أوقع في القرب من قولك فلان منهم ، فهو لا يتخلص لتقريب المنزلة إلا بقرينة ، أما (مِّنْ أَنْفُسِهِمْ) فأخص فلا يفتقر إلى قرينة ، قال محمود الزمخشري : (من جنسهم عربياً مثلهم ، أما وجه المنة عليهم فقد قال : (إذا كان منهم كان واحداً ، وفي كونه من أنفسهم شرف لهم كقوله (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) .

١٦٦ (وَمَآ أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) .

١٦٧ (وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَّا لَيْسَ

فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ) .

بأفواههم – بألسنتهم

جاء في سورة الفتح (سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ) ، الفم واللسان واحد بالمعنى وإن كان اللسان داخل الفم ، وإذا ازدادوا المبالغة قالوا : تكلم بملء فيه ، وإذا ختم على الأفواه امتنعت الألسنة من الكلام والنطق ، والمراد بالآية الإخبار عن المنافقين ممن استحكم النفاق فيهم ، وبتتبع الآيات في القرآن نجد ما جاءت باللسان أخف مما جاءت بذكر الأفواه .

فبإذن الله

الفاء ..... للجواب لما أصابكم (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ) الحديث نوعان حديث اللسان وحديث القلب ، وإن المنافق دائماً وأبداً يبدي ما لا يخفى .

١٧٤ (فَٱنْقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَانَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) .

وقال في سورة الحديد : (وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ) .

إن آية آل عمران تتكلم عن نجاة المسلمين في غزوة أحد مما كان يراد بهم ، أما في سورة الحديد فالكلام عن النور والرحمة والمغفرة ، وهذا أكبر من النجاة في أحد وأشمل وأعم ، لذا كانت بالتعريف الذي يفيد العموم والشمول ، والتنكير يفيد أقل منه .

١٨٣ (ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَاتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) .

جاءكم رسل – جاءت رسل

جاء في الأعراف (جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ) [1] ، إن القاعدة أن جمع التكسير مثل (رسل) يجوز تذكيره وتأنيثه ، يؤنث الفعل عند ما يكون

[1] الأعراف : ٥٣ .

الفاعل أكثر ، وإذا كان أقل يذكر الفعل مثل (جَآءَكُمْ رُسُلٌ) .

١٨٤ (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَآءُوا بِٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ) .

بالبينات والزبر والكتاب المنير

وجاء في سورة فاطر (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ) [1] بثلاث باءات ، لأن ما في آل عمران وقع في كلام مبني على الاختصار وهو إقامة لفظ الماضي في الشرط مقام لفظ المستقبل ، ولفظ الماضي أخف وبناء الفعل بالمجهول فلا يحتاج إلى ذكر الفاعل ، أما في فاطر فإن الشرط فيه بلفظ المستقبل ، والفاعل مذكور مع الفعل (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) ثم ذكر بعده الباءات ليكون على نسق واحد .

وقول آخر أن سورة آل عمران سياق الآية الاختصار والتخفيف بدليل حذف الفاعل في كذّب ، وآية فاطر سياقها البسط بدليل فعل المضارع في الشرط وإظهار فاعل التكذيب فناسب البسط .

١٨٦ (لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلأُمُورِ) .

من عزم الأمور – لمن عزم الأمور

وجاء في سورة لقمان (وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلأُمُورِ) بغير لام في خبر إن في الآيتين ، وجاء في سورة الشورى (وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلأُمُورِ) فزيد اللام في الخبر .

والجواب : وقع الإخبار بالابتلاء بثلاث ضروب ، وأمروا بالصبر وهو أربعة أشياء ، وأما آية لقمان فأشير فيها إلى أربع خصال أمر بها لقمان ابنه ، وأما آية الشورى : فالإشارة فيها إلى (إِنَّ ذَٰلِكَ) إلى اثني عشر مطلوباً حتى الآية (٣٦) .

[1] فاطر : ٢٥ .

التوجيه الإسلامي

الدراسات القرآنية أمام العقل البشري

أ . د . جمال الدين الفاروقي
وينـاد – كيرالا

رغم التطورات العلمية واليقظة العقلية والتقدم الإعلامي الهائل في العالم اليوم ، إلا أن الإنسان المتحضر يزيد فيه مطاولاته على القرآن ومعاندته على القيم والأخلاقيات الربانية ، ويرتبك دائما في الأزمة الفكرية التي نتجت عن عكوفه على مجرد المنهج العلمي والمادي ، وهذا المنهج لا يشبع حاجات الإنسان ولا يقنعه حين تنغص إليه الشكوك والأوهام . والمقالة ترصد الدراسات القرآنية وتناقش تناسبها وتوافقها للعقل الإنساني .

القرآن عظمته وتأثيره :

يوجد لدى البشرية ملايين الكتب ما بين القديم والجديد ، وهذه الكمية الهائلة من المكتوبات تتوزع بين الكتب العلمية والدينية والفلسفية وكتب القصص والروايات ، ولكن القرآن – الكتاب المنزل – يتميز عن كل هذا بعدة خصائص بما يحتوي عليه من الإرشادات الإلهية التي يقبلها الإيمان والعقل معا ، والتفكير السطحي الذي يعتمد عليه الإنسان المعاصر لا يهديه إلى الحق والحقائق . بل على العكس يسوقه إلى هوة السفاهة والجهل ويسقط عنه شرف الإنسانية وتميزه العقلي .

وقد تولد في مكة والمدينة مجتمع صالح استلهم من الآيات والسور القرآنية ما نزل إليهم من الإرشادات الربانية ، ومع نزوله كاملا في خلال ٢٣ سنة ، شهدت الجزيرة العربية ، بل العالم كله – تغيراً جذرياً في أوساط الحضارة والثقافة ، وقد صاغ الناس حياتهم وأعمالهم بحيث يناسب روح القرآن، وتجددت أفكارهم وتنوعت رؤاهم بما أوتوا من ذلك النور الذي يشع من إيمانهم ويضيئ طريقهم إلى الأمام ، واستطاعوا التغلب على القوات الرومانية والفارسية واليونانية الذين كان بأيديهم زمام العالم في تلك الأيام .

وقد كانت البلاد والمدنيات القديمة مثل الهند واليونان والروم وفارس في ذروة بهائهم بما اكتسبوا من التراث الثقافي والعلوم عبر القرون ، بينما

كانت الجزيرة العربية القاحلة في غياهب الجهالة ، ولم يطلع في آفاقها ما يهديهم إلى التوسع الحضاري والثقافي . وكان السكان – ما عدا التجار في الطائف ومكة ويثرب – من البدائيين الأعراب ، يتجولون في البلاد ويعيشون تحت الخيام ويرددون بين الأودية والروابي طلباً للماء والكلأ .

إن من أبرز المحاسن الذي حظي به سكان الجزيرة العربية أن زكاهم القرآن وصقل أذهانهم ومحص قرائحهم واستطاعوا أن يرتقوا مدارج الرقي والتقدم مما لا يوجد له مثيل في السابق واللاحق . وقد قام النبي محمد صلى الله عليه وسلم في خلال ٢٣ سنة ، وفي يده القرآن ، بإصلاحٍ هؤلاء الناس وإيقاظهم من بداوتهم وجاهليتهم . وسجل في التاريخ مكرمةً عظيمةً بهذا الصنيع الجميل، ولم يوفق للعباقرة من ذوي الأصول والمناهج المدروسة في هذه الأيام أن يبلغوا معشار ما بلغ رسول الإسلام (صلى الله عليه وسلم) في ذلك العهد . وما أسفه القوم الذين يزدرون الدين الإلهي وينالون من عظمة الأنبياء وينبذون كتاب الله وراء ظهورهم .

ولم يستطع أحد أن يخرج من نطاق تأثير القرآن ، حتى المؤرخين الذين لم يعترفوا بإعجازه ، إلا أنهم اضطروا إلى الاعتراف بذلك التغيير الاجتماعي الذي أحدث القرآن قبل ١٤ قرناً ، وطائفة أخرى يحاولون إثبات بشرية القرآن، ويزعمون أن آياتها ومعانيها وليدة من أفكار الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخيالاته – حاشا لله ، وقد فشل هؤلاء العلماء في إثبات دعواهم إذ لا نجد في مؤلفات الفلاسفة وذوي القريحة البالغة من التنبؤات العلمية والتأملات الكونية ما يمكن أن نقارنه بالآيات القرآنية . وهل كان يخطر ببال أحد منهم أن كتابا تم تأليفه في أمريكا أو في اليابان أو في الهند ، ساهم في إصلاح كامل شامل في مجتمعات تلك البلاد في خلال ٢٣ سنة ؟ كلا ، بل في المقابل نرى الكثير من هذه الكتب ألقيت في مزابل التاريخ لعدم قدرتها وكفاءتها لمواكبة تطلعات الناس واحتياجاتهم .

مسيرة النجاح والفشل :

لا نكاد نجد من الزعماء البارزين المؤلفين من امتثل في حياته التعاليم والإرشادات التي جادت بها قريحتهم وأقلامهم ، لأن معظم هذه التعاليم لا يمكن تطبيقها في الحياة ، ومن باب أولى يمكن القول إنها نظريات خيالية ، والكثير ممن سودوا القراطيس بمداد الفكر والمعرفة تعرضوا لأوهام ذاتية ونبذوا فلسفتهم ، كما أننا لا نجد أحدًا من هؤلاء الكتاب والحكماء الذين لمسوا ضمير العالم ، لا نجدهم يرتقون بالأمم والمجتمعات إلى قمة المجد

والكمال بعد أن عاشوا تلك الأوامر والتعاليم . وهناك أسباب كثيرة لهذا الفشل ، منها أن الإنسان مهما كانت درجاته العلمية والعقلية لا يمكن أن يأتي بكتاب بعيداً عن العيوب والنقصان بحيث يشمل كل ما يتعلق بحياة الإنسان . وكذلك الكثير من العلماء الأفذاذ لم يوفقوا لصياغة حياتهم وممارساتهم في الحياة مطابقاً لما أوردوا في كتبهم مما بقيت آراؤهم رياضات عقلية لا قوام لها في حياة ذاتهم فضلا في حياة الآخرين ، حتى ولو كانوا يمارسون المبادئ – بعضها في حياتهم الفردية والشخصية لم يعودوا ينقذون الأجيال من مستنقعات البطلان والشرور .

ومع ذلك أن هؤلاء الكتاب والعلماء قوبلوا باحترام العالم واعترافه رغم عجزهم وقصورهم في تحقيق ما تنبؤوا في الكتب . لكن حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم تتميز عن هذا تماماً ، وهو أولا وقبل كل شيء أثبت لمن حوله ولجميع العالمين أن القرآن بكل حروفه وألفاظه منزل من الله تعالى ، وليس له دخل حتى ولو في كلمة منه ، وأي مانع له أن يلفت إليه اهتمام العالم واعتراف معاصريه قائلا إنه هو الذي كتب آياته ورتب سوره ، وقد تعرض الرسول صلى الله عليه وسلم لأقسى الإيذاء والعنت والسخرية بهذا الصدد ، ولم يكسب شيئاً من المنافع المادية بدعوته إلى هذا القرآن على مدى ٢٣ سنة ، وحين أنزل عليه أول آية في القرآن (اقرأ باسم ربك الذي خلق) كان على نوع من الغناء والرخاء بما أجلب إليه من ريع تجارته مع خديجة رضي الله عنها ، إلا أن هذه الدعوة المتواصلة رغم هذه النشاطات التجارية أدته إلى قاع الابتلاءات والمحن ، وإنما كانت ثقته وتفاؤله في الله والإيمان به هو الذي دفعه إلى الأمام، وهذه الآيات الخمس في سورة العلق دعوة للتفكير في خلق الإنسان الذي لم يكن لهم عهد بمثله في تلك الأيام المظلمة . كما أنها تقدم صورة واضحة عن خلق الإنسان وتطوره من العلقة إلى أن صار إنسانا كاملا ، مما كان يقنعهم أن القرآن لم يكن نتاجاً للفكر الإنساني ، بل وأكثر من ذلك صار هو المحرك الهام للعقل والفكر بعد أن ساد عليه الخمول والجمود في الثقافات اليونانية والفارسية ، ولم تسمع البشرية طوال مسيرتها صوتاً مثل هذا إلا من الأنبياء الذين اصطفاهم الله لتبليغ رسالته . ويمكن تقويم هذه الآيات من منظور فلسفي أيضاً ، إذ جعل الله في خلالها منهجا سديدا للتفكير والبحث ، لكي تنطلق الدراسات العلمية أساسًا من التأمل في أطوار الخلق ليتوسل به إلى مسارح العلوم والمعرفة ، كما يتمثل ذلك في قول من قال : من عرف نفسه عرف ربه .

الأبعاد الحضارية :

هناك ظاهرة عامة بين علماء الاجتماع والتاريخ ، وذلك أنهم ينظرون إلى رقي الأمم وسقوطهم من وجهة نظر مادي فقط ، لا يبحثون عن أسبابه من حيث الأوضاع الروحانية ، ويرون التقدم الصناعي والزراعي واليقظة السياسية والنفوذ العسكري في البلاد من أسباب التطور المادي ومسبباته . ولم يعودوا يعدون الإيمان والقيم وسيلة من وسائل هذا التقدم . أما القرآن فإنه لم يسقط أهمية الوسائل المادية في التقدم البشري ، إلا أنه وضع التقدم الروحي والأخلاقي فوق ذلك ، وحث الناس على التوجه إليها قبل أن يطرقوا أبواب الوسائل المادية ، ويقنعهم بضرورة الاستمساك بالقيم والأخلاقيات ليكونوا قادرين لبناء الحضارة والثقافة التي يبحث عنها العباد والبلاد .

أساس العقيدة :

إن أساس الحياة الإسلامية تتمثل في العقيدة التي توحي للإنسان حقائق ثابتة عن الكون والكائنات ، وهي لم تخلق عبثاً والحياة على ظهر الأرض لم تبدأ صدفة ، وكل الذرات في الكون تتحرك وتعمل بنظام محكم متقن ، ومن هذا المنطلق ينشأ الإيمان بالله وصفاته وتصرفاته في الخلق والتدبير ، والكون في المنظور القرآني بكل ما فيه ، يقوم أكبر معجزة لدى الفكر الإنساني ، مما يحثنا القرآنُ دائما على التوجه إلى ذلك الخالق الإله الواحد الصمد ، فيسوغ له أن يستمد توجيهات حياته من أوامره . ومجال الخلق وحده يكفي للإنسان أن يرسخ إيمانه ، والله يقول : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ (سورة ص : الآية ٢٧) والوظائف الكونية بدءا من الذرات والجزيئات وحتى المجرات والكواكب العملاقة كانت ولا تزال تجري بتوازن وتماسك لا يسبق بعضها بعضًا ، وهل يحدث كل هذا صدفة وبدون عامل . والسياق القرآني الذي يلفتنا إلى عجائب الكون ، يثبت لنا أن هذه التأملات والاستقصاء لتؤدي بصاحبها إلى الخضوع لله وحده والاعتراف بوحدانيته . ولنقرأ مثلا الآيات :

" أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا أَإِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّن جَعَلَ ٱلأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ . أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوۤءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلأَرْضِ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْرًى بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّن يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ

وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلأَرْضِ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . (النمل : ٦٠ – ٦٤)

وهذه الآيات التي تشمل كل ما في الكون من خلق وتدبير ، توحي للإنسان المنصف العلاقة الوثيقة بين الوظائف الكونية وعقيدة التوحيد ، ثم يقول تعالى في سياق آخر: " لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (الأنبياء ، الآية : ٢٢) فالكون كله يقوم على أساس من وحدانية الله ، ورغم ما يوجد الشرك بكل مظاهره الفاتنة فوق الأرض ، إلا أنه لا قوام ولا بقاء له كما يتمثل ذلك في قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَاطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ " (سورة لقمان ، الآية : ٣٠)

كما أن عقيدة التوحيد المنطلقة من الآيات المذكورة تتميز تماماً عن كل العقائد الإلهية التي توارثتها القبائل وتناقلتها الألسن والأساطير . وهي الركيزة الأساسية في حياة الإنسان ، وعليه يبنى الإيمان ويستقيم ، وهذه العقيدة ليست شيئاً إلا الإنابة إلى الله والتوكل عليه وإخلاص الدعاء والعمل له والاستسلام له في المسرات والمضرات . وهي كذلك البذرة الطيبة التي تنبت الأعمال الصالحات والأخلاق الفاضلة في شخصية الإنسان ، وكان العرب في جاهليتهم يعترفون بهذا الخالق وقدرته ، إلا أنهم حين تحيط بهم النكبات والنكسات كانوا يلجأون إلى غيره بتضرعاتهم وابتهالاتهم ، وما قدروا الله حق قدره في الألوهية وإخلاص العبادة والدعاء له .

قصور العقل :

إن عقل الإنسان مهما كانت درجاته العلمية قاصر وناقص ، يقوم بين الحدود والقيود ، وليس هذا شأن العقل فحسب ، بل كل المهارات في الإنسان تخضع لبعض الحدود ، ونحن لا يمكننا أن نرى الأشياء البعيدة عن أعيننا ، ولا نسمع الأصوات التي تحدث من بعد أميال . وعقل الإنسان مع ذلك لا يسلم من الزيغ والزلات ، والذي يثبت العقل ويقويه هو الإيمان فقط . وفي غياب الإيمان يبقى فيه الرجس والدرن ، والله يشير إليه : كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ " (الأنعام ، الآية : ١٢٥) والإنسان العاقل في نظر القرآن هو الذي يدفعه فكره ودراسته ليخوض في عالم العجائب بباصرة إيمانية وبصيرة ربانية . وهناك يكون الحلم رفيقه والحزم رديفه فيقودانه إلى الحق الحتمي فيسوغ له الانقياد بقلبه وقالبه .

كما أن الأمور التي بدت لنا أنها صحيحة ولائقة في أيام شبابنا تغدو

غير مناسبة لظروفنا وذوقنا في أيام الكهولة ، والأمور التي تسوغ لنا في تلك الأيام لا تنسجم بطبيعتنا حين يطول بنا العمر . والمفاهيم الإنسانية في سياق مختص لا يمكن تطبيقها في سياق آخر . والقرآن يتميز بهذا الصدد بإرشاداته الإلهية التي تفوق المفاهيم البشرية في كل زمان ومكان . وقد بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم بهذا الكتاب ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وكل ما شرع الدين من الأخلاق والعبادات والتصرفات تواكب تطلعات الإنسان . وهذا ما ينطلق من قوله تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (سورة الروم ، الآية : ٣٠) وأكبر وظيفة قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم هو تكييف المرء مع طبيعته وفطرته ، فهو الذي يتمثل في قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلأَغْلاَلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ " (الأعراف ، الآية : ١٥٧)

مزالق المادية ومهاويها :

ونرى الكثير من ذوي التفوق العلمي والتميز البحثي يتخبطون في الغواية والخسة حين أهملوا الهداية الربانية ونبذوا تعاليمها وراء ظهورهم . وهناك العديد من هؤلاء صاروا فريسة الخمور والمخدرات حين سدت أمامهم أبواب الأمل والتبست عليهم الأمور . وفريق آخر يمارسون الخلاعة والمجون حسبما سولت لهم أنفسهم مما أوقعهم في هاوية الأمراض والأوباء . ورأوا اللجوء إلى التعاليم القرآنية والتأسي بقدوة الرسول صلى الله عليه وسلم من الأفكار الرجعية التي تدفعهم إلى التخلف وترجعهم القهقرى ، وقاموا بتبرير الأمور من مجرد المنظور المادي ، مما جعلهم يرتبكون أمام سؤال أتباعهم . والرائد الشيوعي ماركسن غوركي (Marxian Gorky) مرة قيل له : يا سيدي ! ما ذنب أحدنا لو مارس الجنس مع كل الفتيات ؟ ففكر قليلا ، ثم أجاب قائلا : " لا أرى فيه بأساً ، إلا أنني أود أن يشرب كل واحد من كأس خصصت له " . ولكن هذا الجواب لا يروي غلة سائلٍ مثلنا . لأن الفنادق والمطاعمَ في بلادنا لا يوجد فيها إلا عشرات الكؤوس ، ومئات الناس يرتادونها كل يوم ، وماذا يفعل أصحابها ؟ يغسلون الكؤوس وينظفون بعد استعمال الواحد ويقدمونها من جديد للثاني والثالث . فهل سائغ عقلا أن نلجأ إلى المومسات إن كن يغسلن ويتطهرن بعد كل ممارسة ؟ كلا ، وهذا في

غاية الفضيحة والوقاحة التي يمجها الذوق والفطرة السليمة . والخواء الروحي الذي أصيب به المثقفون المعاصرون أدى بهم إلى المزالق والفتن التي ستقضي على كيانهم وكيان ذرياتهم .

طاقة خير ومورد بركة :

التعايش مع القرآن والإمعان في تدبر آياته وعجائبه يزود الإنسان بطاقة خيرة مباركة تدفعه إلى إعمال فكره بصورة ناجحة مؤثرة . والقرآن هو الروح الحقيقي بكل ما تعني الكلمة ، كل حرف فيه يزود السامعين بشيء من هذه الطاقة التي يتمثل فيها الروح ، كما يقول تعالى " وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا " (سورة الشورى ، الآية : ٥٢) ، وهذا الروح يتحول بالإنسان إلى الإيمان الذي يرسخ في قلبه فتنطلق ملامحه في كل حياته . وإليه تشير الآية " وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ " (سورة التغابن ، الآية : ١١) ، والإنسان لا يصل إلى الهداية الإلهية حتى يشع النور الإلهي من قلبه فيشرق ما فيه من الأفكار والنيات ، وهذا لا يتم إذا كان القلب خاليا من الهداية والأفكار الربانية . ومن ليس في قلبه أثر الهداية لا يزيده القرآن إلا ضلالاً إلى ضلاله ، وهو الذي يتخبط في سلوكه وتصرفاته دون وعي ، ويبقى فيها تمثالاً بلا روح ، فيورط نفسه ويورط الآخرين ، والقرآن يشير إلى أحوالهم : " وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " (سورة الأعراف ، الآية : ١٧٥ – ١٧٦) والذين يتسارعون وراء التطلعات المادية إشباعا للأيديولوجيات الباطلة ويحاولون دائماً التلاعب بالتعاليم القرآنية والتحايل عليها والحط من شأنها وهم مثل الكلاب ، بل هم أضل . تضيق أمامهم الدروب إلى الحق وتسد في وجوههم الأبواب إلى الرشد ، كما يجسد ذلك في الآية : " قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِيٓ آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى " (سورة فصلت ، الآية : ٤٤) .

والقرآن إذًا ، ينور القلوبَ ويشحذ العقولَ وينقذ الإنسانَ من السفاهة ويهديه إلى الرشد والصواب ومن الإثارة إلى التوجيه ومن الهدم إلى البناء ومن الانطواء إلى الانشراح ومن التشاؤم إلى التفاؤل ومن الهوان والمذلة إلى العز والمكرمة .

الدعوة الإسلامية

هل يستطيع الإنسان أن يعيش بلا دين ؟

بقلم : الشيخ الطاهر بدوي الجزائري

إن الجواب على هذا السؤال يستدعي أولاً معرفة كنه الدين لأنك لو حددته بأنه مجموع العقائد التي يتلقاها الإنسان عن أمه وأبيه وينقشها في ذهنه معلمه ومربيه ، ويزيدها الوسط الذي يعيش به نشوبا فيه ، أو أنه تلك الأساطير التي تفرقت عليها الأمم أحزاباً وأنشقت بها الشعوب أسراباً وكثر فيها الجدال أحقاباً ، وصقلتها القرائح فصارت فصولاً وأبواباً ، فلا تعدم قائلاً يقول : " تلك أيام خلت وأدوار حدثت ومضت ، وقد استقام الإنسان بعدما تجاذبته الأدوار وتقاسمته الأطوار على طريق العلم الصحيح وهو طريق الحس والعيان لا يعوده إلى غيره إلا مفتون الجنان " [1] .

وهناك معارضون ومتفلسفون وهميون ، سواء من الغربيين أو من المستشرقين وحتى من إخواننا أبناء ملتنا السمحة يقفون حجرة عثرة في طريق من يسير إلى الله بالدين الصحيح ، فأنهم لا يرون للمسلمين عامة سبباً لتأخرهم عن غيرهم ويقولون لهم بلسان الحال والمقال : " لا نرى سبباً لتأخركم عن غيركم إلا أنكم تريدون أن تعيدوا مثل الأولين في الحياة تعاليم الدين ، وكيف يتأتى ذلك وحياة الأمم كحياة الأفراد أطوار بعد أطوار لكل طور مناسبات ومقتضيات ؟ فما مثلكم في تشبثكم بالدين إلا كمثل من أراد أن يعيش طفلاً مقيداً من يديه وقد دخل دور الشبيبة وأزعجته الطبيعة للسير بعقله الخاص خالصاً من كل إرادة فوق إرادته الذاتية " .

" هذا سر جمودكم وما دمتم لا تعرفونه ولا يقوم فيكم رجال جسورون يدعونكم إلى تقليد الأوروبيين بترك الدين أو فصله عن

[1] انظر " دائرة معارف القرن العشرين " للأستاذ : " محمد فريد وجدي " ، ج ٤ .

حياتكم الاجتماعية كما فصلوه هم قبلكم ببضعة قرون ، فلا يرجى لكم إصلاح أبداً . ومما يستغرب من أحوالكم أنكم تريدون أن تجاوروا أوروبا وتساموها في مجدها ومدنيتها وأنتم كارهون دورها الذي هي فيه ، فكأنكم تريدون أن تباروها وتسبقوها وأنتم على ما أنتم عليه من الجمود على دور سابق . مثلكم في ذلك كمثل من جاز دور الطفولة ولكنه عز عليه أن يتخلص من مقتضياته وهو مع ذلك يريد أن يسابق شاباً آخر خضع لأحكام الطبيعة ولم يعارض فعلها عليه فقادته إلى طريق الحياة الكاملة ورفعته من الكمال إلى الدرجات المقدرة له . لا جرم تذهب أتعاب الأول أدراج الرياح ولا يكون حظه من الحياة إلا الأسر والذل ، والخنوع للأقوى وحمل نيره على عاتقه " .

هذا غاية ما يستطيع أن يقوله المتفلسفون وها نحن نقرر لأمثال هؤلاء أصولاً نعدها محسوسة مثبتة ثم نستخلص منها مذهبنا في الدين والمدنية فإن شاءوا اهتدوا بهديها وإلا فما هم بأشد على الله من سابقيهم . فنقول :

(أولاً) قد ثبت بالأدلة الحسية أن وراء هذا العالم المادي عالماً روحانياً أرقى منه ستنتهي النفوس إليه بعد الموت .

(ثانياً) قد ثبت أن النواميس الطبيعية ممكن تخلفها عن إحداث آثارها بنواميس أخرى أرقى منها . وقد اثبت العلم الأوروبي الآن أن معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلها ممكنة . وقد وصلوا إلى هذه الحقيقة بحقيقة علمية أخرى كفنِ " اسبرتزم " الذي يتعلق باستحضار أرواح الموتى وفنِ " التنويم المغناطيسي " وغيرهما . . . . وبهذه الحقائق وصلوا إلى أن الموت ليس في ذاته إلا انتقالاً من حال مادي جسدي إلى حال مادي آخر ولكن أرقى منه وألطف بكثير .

(ثالثاً) قد ثبت أن الإنسان مرتبط بالعالم الروحاني صلاحاً أو فساداً بمعنى أن كل فرد منا معرض لتأثير الكائنات الروحانية سواء كانت علوية أو سفلية . فالسفلية تستولي عليه بالوسوسة والإغراء .

والعلوية تمخضه النصيحة والإرشاد وهو بينهما في حالة تنازع يتأذى في نهايته إلى ما قدر له من خير أو شر وسعادة أو شقاوة .

هذه الأصول الثلاثة قد أثبتها العلم الأوروبي العصري و أصبح لها أشياع من أهم علماء الأرض هم الذين شهروها ونشروها ويسعون في إشرابها النفوس بواسطة أكثر من ٢٥٠ مجلة خاصة بها غير ألوف مؤلفة من جمعيات ونوادي وألوف من مؤلفات . وإذا ثبتت هذه الأصول فما هو الدين وماذا بقي عليك لأجل أن تكون متديناً كاملاً ؟ فالذي يعتقد بالعالم الروحاني يعتقد بالألوهية وبالروح وبالبعث ومن يعتقد بالخوارق يعتقد تبعا لها بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ومن يعتقد بارتباطه بعوالم الغيب يعتقد بضرورة الكمال الخلقي .

❖ ليس الدين فلسفة لها أبواب وفصول ، ولا هو فقه يعرف به المحق من المبطل من المتخاصمين ، ولا هو علماً تأخذ منه أحوال الشمس والقمر وطبائع الحيوانات و النباتات والمعادن وتاريخ الأمم ، وإنما هو ميل روحاني من النفس للخلاص من أسر هذه المادة ألأرضية والعروج إلى سماء الكمال الأقدس . كان يظهر بهذا الميل في كل جيل أو أجيال رجلاً يرسله الله تعالى إلى قوم يصيح بهم ليربئوا بأنفسهم عن مشاكلة الحيوانات في عمايتها وغوايتها والجمادات في مواتها ، ويريهم أن للإنسانية مجالا أعلى مما يتقاتلون عليه من حطام هذه الأرض الفانية وملاذها .

هذا الميل الروحاني فطرة الله التي فطر عليها كل نفس إنسانية تزيدها العلوم قوة وظهوراً ، ولا يعقل أن دوراً من أدوار الاجتماع أو حالاً من أحوال التقدم الصناعي يلاشي هذه الفكرة الإنسانية الكريمة وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله : " فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنيفاً فِطْرَةَ ٱللَّه ٱلَّتى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّه ذٰلكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ".(الروم / ٣٠)

هذا التوجيه لإقامة الوجه للدين القيم يجئ في موعده وفي موضعه ، وهذا هو السلطان القوي الذي يصدع به القرآن . السلطان الذي لا تقف له القلوب ولا تملك رده النفوس " فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّين حَنيفاً " واتجه إليه مستقيماً .

فهذا هو العاصم من الأهواء المتفرقة التي لا تستند على حق ولا تستمد من علم ، إنما تتبع الشهوات والنزوات بغير ضابط ولا دليل . . . . أقم وجهك للدين حنيفاً مائلاً عن كل ما عداه ، مستقيماً على نهيه دون سواه .

" فِطْرَةَ ٱللَّه ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّه ذٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ " وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين ، وكلاهما من صنع ، وكلاهما موافق لناموس الوجود ، وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه . والله الذي خلق القلب البشري هو الذي أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويطب له من المرض ويقومه من الانحراف . وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير .

والفطرة ثابتة والدين ثابت " لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّه " فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة ، فطرة البشر وفطرة الوجود [1] .

فهي الإنابة إلى الله والعودة في كل أمر إليه وهي التقوى وحساسية الضمير ومراقبة الله في السر والعلانية والشعور به عند كل حركة وكل سكنة قال جل و عز : " مُنِيبِينَ إِلَيْه وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ " (الروم/ ٣١ – ٣٢) . وهي كذلك إقامة الصلاة للعبادة الخالصة لله وهي التوحيد الخالص الذي يميز المؤمنين من المشركين .

ويصف المشركين بأنهم " ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً " . والشرك ألوان وأنماط كثيرة ، فمن المشركين من يشركون الجن ومنهم من يشركون الملائكة ويقولون إنها بنات الله ، ومنهم من يشركون الأجداد والآباء ومنهم من يشركون الملوك والسلاطين ومنهم من يشركون الكهان والأحبار ومنهم من يشركون الأشجار والأحجار ، ومنهم من يشركون الكواكب والنجوم ، ومنهم من يشركون النار ومنهم من يشركون الليل والنهار ، ومنهم من يشركون القيم الزائفة والرغائب

[1] انظر " ظلال القرآن " .

والأطماع ، ولا تنتهي أنماط الشرك وأشكاله . . . " كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ " بينما الدين القيم واحد لا يتبدل ولا يتفرق ، ولا يقود أهله إلا إلى اللّه الواحد الذي تقوم السموات والأرض بأمره وله من في السموات والأرض كل له قانتون .

وأدرك هذا السر فلاسفة أوروبا وأعني سر فطرة التدين في الإنسان التي لا يمكن أن تتلاشى فيه ولن تجد لسنة اللّه تبديلاً ولا تحويلاً . فقال غطريفهم الأشهر " أرناست وينان " في كتابه المسمى " تاريخ الأديان " : " من الممكن أن يضمحل و يتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى ، بل سيبقى أبد الأبادِ حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الطينية " أ هـ [1] .

نعم يستحيل على أي حال من أحوال العالم أن يتوصل إلى ملاشاة فطرة التدين في الإنسان لأنها أشرف ميول النفس وأكرم عواطفها ، ناهيك بميل يرفع رأس الإنسان ويجعله يتحرى من حظير القدس مكانة يضع نفسه فيها آنفاً من المادة وقذرها ، غير راض أن تكون مرمى هممه ، ومطمح نظره ، ومنتهى أربه . يستحيل أن يتلاشى هذا الميل في الإنسان ، ليس هذا فحسب بل سيأخذ في النمو رويداً رويداً حتى يضطر الإنسان لأن يخلع من عنقه نير هذه المادة الصماء ، فيصبح متجردا لسلطان الروح ، ترفعه إلى أبعد ما يتوهمه وهم الواهمين من معارج الرقي النفساني .

يقول اللّه سبحانه :

(فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)

[1] انظر " دائرة معارف القرن العشرين " ، ج ٤ .

رابعة العدويّة

سيرتها – كلماتها - ومناجاتها

بقلم : د . خالد السعد *

خلال الأحداث المصرية ، برز اسم (رابعة العدويّة) . فمن تكون هذه المرأة التي ذاع صيتها في الآفاق ، واشتهرت لدى جمهور المسلمين من قديم ، وأطلق اسمها على العديد من المساجد والمدارس في عالمنا الإسلامي ؟

هي رابعة بنت إسماعيل العدوية ، تكنّى بأم الخير ، ولدت في البصرة سنة (١٠٠هـ) من أب عابد فقير ، وهي ابنته الرابعة ، وهذا يفسر سبب تسميتها برابعة .

حفظت القرآن الكريم ودرست الحديث الشريف وهي في عمر الزهور ، أسوة ببني عصرها في تلك المرحلة من حياة المسلمين .

توفي والدها وهي طفلة دون العاشرة ، ولم تلبث الأم أن لحقت به ، فوجدت رابعة وأخواتها أنفسهن بلا عائل ، وذاقت رابعة وأخواتها مرارة اليتم الكامل .

ثم بعد مدة من وفاة والديها غادرت رابعة مع أخواتها البيت ، بعد أن دبّ البصرة وباء أوصل الناس إلى حدّ المجاعة ، وأدى إلى انتشار اللصوص وقطاع الطرق . وهنا حدثت حادثة أدت إلى التفريق بين رابعة وأخواتها ، وهي أن أحد اللصوص خطف رابعة وباعها لأحد التجار القساة من آل عتيق وهم من بني عدوة ، ولذا سميت بالعدويّة . وكان التاجر يحمّلها من العمل فوق طاقتها .

وقد ظهرت حكايات عن رابعة – بثّتها الأفلام في أذهان الناس – عن تلك الفترة التي عاشتها عند ذلك التاجر ، صوّرتها فتاة لاهية عابثة ، تمرّغت في أوحال المحرمات ، حتى إذا آذن شبابها بالرحيل اتجهت إلى العبادة والزهد . ولكنّ المحققين من المؤرخين رفضوا هذه الصورة ، واعتبروها من نسج الخيال كما يحصل مع الشخصيات التاريخية .

ومما يؤكد أن هذه الصورة غير صحيحة ومشوهة: إن هذه الفتاة التي نشأت في بيئة صالحة انصرفت إلى التعبد وهي لا تزال في سنّ الشباب ، فعلت

* الأستاذ المساعد بجامعة البحرين .

ذلك تأثرا بأبيها العابد ، أو تأثرا بإحدى عابدات البصرة وهي (حيونة) . فكانت رابعة إذا فرغت من خدمة سيدها تختلي بنفسها ، وتقوم الليل وتناجي ربها وتكثر البكاء والدعاء .

وفي إحدى الليالي استيقظ سيدها من نومه فسمع صلاتها ومناجاتها ، ونظر من خلال الباب فرآها ساجدة تشكوه إلى ربها وتقول : إلهي أنت تعلم أن قلبي يتمنى طاعتك ونور عيني في خدمتك ، ولو كان الأمر بيدي لما انقطعت لحظة عن مناجاتك ، ولكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عبادك .

ويقال – ولا أدري مدى صحة ذلك وهل هو حقيقة أم من زيادات وترّهات بعض الكتّاب ؟ – إنه خلال صلاتها ودعائها شاهد قنديلا يحلّق فوق رأسها وله ضياء يملأ الغرفة ، فأصابه فزع وظلّ يفكر حتى طلع النهار ، وهنا دعا رابعة ووهبها الحرية ، وخيّرها بين البقاء معه وبين الرحيل ، فودعته وارتحلت .

في أول الأمر اتخذت المساجد دارها ، وكانت حريصة على حضور حلقات الذكر أو الاستماع إليها . ثم حُبّب لها أن تختلي بنفسها وتبتعد عن الناس ليخلص قلبها من الدنيا ، ولا يبقى لديها ما تشغل به نفسها إلا شيء واحد هو (حبّ الله)، ولذلك رفضت كل من تقدّم لزواجها ، فليس في قلبها مكان لغير الله .

وهنا تتدخل التأويلات الصوفية فتزعم أن رابعة خالفت متقدمي الصوفية الذين كانوا مجرد زهّاد ، أما هي فكانت مؤسسة لمذهب من مذاهب التصوف وهو مذهب (العشق الإلهي) ، حتى إن عبدالرحمن بدوي سمى كتابه (رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي) . فكانت تقول بالعشق الخالص لله ، أي الذي لا تقيّده رغبة سوى حبّ الله وحده ، لا رغبة في الجنة ولا خوف من النار .

نسبت إليها أقوال منكورة اتهمت بسببها اتهامات خطيرة ، ولكن ابن تيمية برّأها منها (انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية : ٢/ ٣١٠) ، وكذلك فعل سفيان الثوري وشعبة وغيرهما ، مما يدلّ على بطلان ما قيل عنها . وقال الذهبي : (لعل من نسبها إلى ذلك حلوليّ ليحتج بها على كفره) .

ولما بدأت رابعة تشتهر – بزهدها وصلاحها ومواعظها – صار لها مجلس تستقبل فيه الناس وتعظهم ، وتلقي عليهم بعض قصائدها وكلماتها الشعرية التي تعبّر عما يختلج قلبها من حبّ لله تعالى ، فمن ذلك قولها:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صحّ منك الودّ فالكلّ هيّن ... وكلّ الذي فوق التراب تراب

ومن شعرها أيضا :

راحتي يا إخوتي في خلوتي وحبيبي دائما في حضرتي
لم أجد لي عن هواه عوضا وهواه في البرايا محنتي
حيثما كنت أشاهد حسنه فهو محرابي إليه وقبلتي
إن أمت وجدا وما ثَمَّ رضا واعنائي في الورى واشقوتي

من كلماتها :

وكان مجلسها مجلس تذكير وتربية يؤمّه كبار الأئمة والفقهاء – من أمثال سفيان الثوري ومالك بن دينار – فيأخذون عنها الحكمة وأطايب الكلام ، فمن ذلك قولها :

- اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم .
- ما ظهر من أعمالي فلا أعدّه شيئا .
- إن العبد إذا ذاق محبة الله تعالى أطلعه على مساوئ عمله ، فشغله بها عن مساوئ الناس .
- لو كانت الدنيا لرجل ما كان بها غنيا لأنها تفنى .
- محبّ الله لا يسكن – أي لا يهدأ – أنينه وحنينه حتى يسكن في جنّة محبوبه .
- استغفر الله من قلة صدقي في قولي .
- استغفارنا يحتاج إلى استغفار . تعني : من عدم الصدق فيه .
- أكثر ما أكون راجية للخير حين تقلّ أعمالي الصالحة . أي لكونها كانت معتمدة على فضل الله تعالى وامتنانه لا على الأعمال .
- وقيل لرابعة : أتحبين الموت ؟ فقالت : لو عصيت آدميّا ما أحببت لقاءه خجلا منه ، فكيف وقد عصيت ربي عزّ وجلّ .
- وحينما سألها سفيان الثوري : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته فأكون كأجير السوء ، بل عبدته حباً وشوقاً إليه .
- وسمعت سفيان يقول بحضرتها : واحزناه ، فقالت له : يا سفيان لا تقل ذلك ، لو كنت حزينا ما تفرّعت لهذا القول ، قل واقلة حزناه ، فإنه إلى الصدق أقرب .
- وسمعته مرة يقول : اللهم إني أسألك رضاك ، فقالت : تسأله رضا من لست عنه براض .
- وكانت رابعة تأنف من ذكر الدنيا في مجلسها وتزجر من يفعل ذلك . يقول حماد : دخلت أنا وسلّام بن أبي مطيع على رابعة ، فأخذ سلام في ذكر الدنيا فقالت : إنما يذكر شيء وهو شيء ، أما شيء ليس بشيء فلا .
- وسمعت صالحا المري يذكر الدنيا في قصصه فنادته : يا صالح ، من أحب شيئا أكثر من ذكره .

راحتي يا إخوتي في خلوتي وحبيبي دائما في حضرتي
لم أجد لي عن هواه عوضا وهواه في البرايا محنتي
حيثما كنت أشاهد حسنه فهو محرابي إليه وقبلتي
إن أمت وجدا وما ثَمَّ رضا واعنائي في الورى واشقوتي

من كلماتها :

وكان مجلسها مجلس تذكير وتربية يؤمّه كبار الأئمة والفقهاء – من أمثال سفيان الثوري ومالك بن دينار – فيأخذون عنها الحكمة وأطايب الكلام ، فمن ذلك قولها :

- اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم .
- ما ظهر من أعمالي فلا أعدّه شيئا .
- إن العبد إذا ذاق محبة الله تعالى أطلعه على مساوئ عمله ، فشغله بها عن مساوئ الناس .
- لو كانت الدنيا لرجل ما كان بها غنيا لأنها تفنى .
- محبّ الله لا يسكن – أي لا يهدأ – أنينه وحنينه حتى يسكن في جنّة محبوبه .
- استغفر الله من قلة صدقي في قولي .
- استغفارنا يحتاج إلى استغفار . تعني : من عدم الصدق فيه .
- أكثر ما أكون راجية للخير حين تقلّ أعمالي الصالحة . أي لكونها كانت معتمدة على فضل الله تعالى وامتنانه لا على الأعمال .
- وقيل لرابعة : أتحبين الموت ؟ فقالت : لو عصيت آدميّا ما أحببت لقاءه خجلا منه ، فكيف وقد عصيت ربي عزّ وجلّ .
- وحينما سألها سفيان الثوري : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته فأكون كأجير السوء ، بل عبدته حباً وشوقاً إليه .
- وسمعت سفيان يقول بحضرتها : واحزناه ، فقالت له : يا سفيان لا تقل ذلك ، لو كنت حزينا ما تفرّعت لهذا القول ، قل واقلة حزناه ، فإنه إلى الصدق أقرب .
- وسمعته مرة يقول : اللهم إني أسألك رضاك ، فقالت : تسأله رضا من لست عنه براض .
- وكانت رابعة تأنف من ذكر الدنيا في مجلسها وتزجر من يفعل ذلك . يقول حماد : دخلت أنا وسلّام بن أبي مطيع على رابعة ، فأخذ سلام في ذكر الدنيا فقالت : إنما يذكر شيء وهو شيء ، أما شيء ليس بشيء فلا .
- وسمعت صالحا المري يذكر الدنيا في قصصه فنادته : يا صالح ، من أحب شيئا أكثر من ذكره .

حسنات الحرم . قيل : وما حسنات الحرم ؟ قال : الحسنة بمائة ألف .

اللحظات الأخيرة في حياتها :

عاشت رابعة حتى صارت عجوزاً في الثمانين ، وبدت في آخر عمرها ضعيفة لا تقوى على المشي . وكانت تضع أكفانها أمامها ، فإذا ذكرت الموت انتفضت وأصابتها رعدة .

وحين قرب موتها قالت لخادمتها : يا عبدة لا تؤذني بموتي أحدا ، وكفنيني في هذا الكفن .

وتوفيت في سنة (١٨٠هـ) وقيل غير ذلك ، وقبرها يقع في ظاهر القدس على جبل يسمى الطور . وقيل ذلك قبر رابعة غير رابعة العدوية .

رؤى ومنامات بعد موتها :

رآها بعض الناس في المنام فقالت : هداياك – تعني : دعاءه لها وترحّمه عليها – تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل من نور .

وذكرها ابن القيم في كتابه (الروح) فقال : ولما ماتت رابعة رأتها امرأة من أصحابها وعليها حلّة استبرق وخمار من سندس ، وكانت كفنت في جبة وخمار من صوف ، فقالت لها : ما فعلت الجبة التي كفنتك فيها وخمار الصوف ؟ قالت والله إنه نزع عني وأبدلت به هذا الذي ترين عليّ ، وطويت أكفاني وختم عليها ، ورفعت إلى عليين ليكمل لي ثوابها يوم القيامة . قالت فقلت لها : لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ؟ فقالت : وما هذا عندما رأيت من كرامة الله لأوليائه . فقالت لها : فما فعلت عبدة بنت أبي كلاب ؟ فقالت : هيهات هيهات سبقتنا والله إلى الدرجات العلى . قالت قلت : وبم وقد كنت عند الناس أعبد منها ؟ فقالت : إنها لم تكن تبالي على أي حال أصبحت من الدنيا أو أمست . فقلت : فما فعل أبو مالك ؟ – تعني ضيغما – فقالت : يزور الله تبارك وتعالى متى شاء . قالت قلت : فما فعل بشر بن منصور ؟ قالت : بخ بخ أُعطي والله فوق ما كان يأمل . قالت قلت : مريني بأمر أتقرب به إلى الله تعالى . قالت : عليك بكثرة ذكر الله ، فيوشك أن تغتبطي بذلك في قبرك .

المراجع :

١) سير أعلام النبلاء للذهبي .
٢) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي .
٣) الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي .
٤) مجموع فتاوى ابن تيمية .
٥) الروح لابن القيم .
٦) تنبيه المغترين للشعراني .
٧) الأعلام للزركلي .

الفقه الإسلامي

زراعة الأعضاء البشرية في ضوء الشريعة الإسلامية

(الحلقة الثانية)

د . خورشيد أشرف إقبال الندوي (لكناؤ – الهند)

زراعة الأعضاء بين الأحياء :

– أولاً : زرع العضو من جسد الإنسان إلى الجسد ذاته فى موضع آخر

إذا كان نقل العضو ضروريا (أى ما تعلق بحفظ أحد المقاصد الشرعية الخمسة وهى : الدين والنفس والعقل والعرض والمال) ، مثل نقل الشريان العادى لعلاج شريان القلب ، أو الأوردة فى حالات جراحات القلب والأوعية الدموية ، فإن ذلك جائز لتوقف حياة المريض على ذلك ، طالما غلب على ظن الطبيب أن النفع المتوقع من هذه العملية أرجح من الضرر المترتب عليها .

وكذلك الحكم إذا كان النقل محتاجا إليه ، وإن لم يصل إلى درجة الضرورة الأصولية ، مثل نقل الجلد السليم المناسب من مكان إلى مكان آخر فى حالة الحرق .

وهذه المسألة تدخل فيما ذكره فقهاؤنا القدامى من جواز قطع العضو وبتره لإنقاذ النفس ودفع الضرر عنه عند غلبة الظن بذلك ، فيكون نقل العضو لأجل إنقاذ النفس بطريق أولى .

– ثانياً : نقل الأعضاء من إنسان حي إلى آخر

إن الإعضاء الإنسانية تنقسم إلى قسمين :

أ – الأعضاء الفردية : وهي التي لا يوجد لها بديل يقوم بوظيفتها ويؤدي نقلها إلى وفاة صاحبها ، كالقلب أو الكبد ، أو الدماغ .

فهذه الأعضاء الفردية لا يجوز باتفاق العلماء انتزاعها من صاحبها ما دامت الحياة سائرة فيه ، وإن وصل إلى حالة الاحتضار ، وكان الشخص الآخر مهددا بالوفاة إذا لم يتم إنقاذه بنقل العضو الفردي ؛ لأن ذلك يؤدي إلى الهلاك المحقق للإنسان المنقول منه ، وليس أحدهما أولى بالحياة – في نظر الشرع – من الآخر ، إضافة إلى أن الهلاك للمنقول منه

محقق ، وثبوت الحياة للمنقول إليه مظنون ، فلا يقدم المظنون على المتيقن، ولأن وقت خروج الروح منه لا يعلم يقينا ، كما أن المنقول إليه وإن كان ظاهر السلامة إلا أنه لا يعلم هل تسبق وفاته وفات المحتضر أو تتأخر عنه .

وقد دلت الآيات الكريمة على حرمة إلقاء النفس في التهلكة ، قال تعالى : ﴿ لاَ تُلقوا بأيدنكم إلى التهلكة ﴾ [1] . وقوله عز وجل : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾ [2] .

ب – الأعضاء غير الفردية : وهي التي يوجد لها بديل يقوم بوظيفتها ، ولا يؤدي أخذها إلى وفاة غالبا ، كالرئتين ، والكليتين ، والعينين .

اختلف العلماء المعاصرون في حكم نقل الأعضاء غير الفردية من الآدمي الحي إلى مثله ، وتباينت آراؤهم ووجهات نظرهم في هذه المسألة ، إلا أنه يمكن حصر اختلافهم في اتجاهين رئيسين :

– الاتجاه الأول :

(يرى أصحابه عدم جواز نقل الأعضاء الآدمية بين الأحياء) وممن قال بذلك الشيخ محمد متولي الشعراوي ، والشيخ عبد الله بن الصديق الغماري ، والدكتور جاد الرب رمضان جمعة ، والدكتور عبد السلام السكري ، والدكتور عبد الفتاح إدريس ، والدكتور حسن علي الشاذلي ، والدكتور عبد الرحمن العدوي ، والشيخ حسن بن علي السقاف ، والأستاذ برهان الدين السنبهلي ، والدكتورمصطفى عبد الله الهمشري ، والطبيب صفوت حسن لطفي [3] .

---

[1] سورة البقرة ، الآية : ١٩٥ .

[2] سورة النساء ، الآية : ٢٩ .

[3] انظر : الإنسان لا يملك جسده فكيف يتبرع بأجزائه أو يبيعها مقال للشعراوي جريدة اللواء الإسلامي العدد ٢٢٦ ، تعريف أهل الإسلام بأن نقل العضو حرام للغماري ، مخطوط من إملاء جاد الرب علي طلاب الدراسات العليا بكلية الشريعة القانون بجامعة الأزهر عام ١٩٩٤م ، نقل وزراعة الأعضاء الآدمية من منظور إسلامي كتاب للسكري ، حكم التداوي بالمحرمات بحث لعبد الفتاح ، انتفاع الإنسان بأعضاء جسم إنسان آخر حيا أو ميتاً ، بحث للشاذلي ، جنون العلم في زراعة الأعضاء مقال للعدوي في مجلة منبر الإسلام سنة ١٩٩٢م ، الامتناع والاستقصاء لأدلة تحريم نقل الأعضاء ، رسالة للسقاف ، قضايا فقهية معاصرة كتاب للسنبهلي ، الأعمال

- الاتجاه الثاني :

(يرى أصحابه جواز نقل الأعضاء البشرية من الأحياء إلى الأحياء)

ولكن بشروط وضوابط معينة [1] ، وعلى رأس هؤلاء الشيخ جاد الحق علي جاد الحق ، والدكتور يوسف القرضاوي ، والدكتور محمد سيد طنطاوي ، والدكتور نصر فريد واصل ، والدكتور أحمد عمر هاشم ، والدكتور عبد الرحمن النجار ، والدكتور مصطفى محمد العرجاوي ، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي ، والشيخ إبراهيم اليعقوبي ، والدكتور عبد الحميد إسماعيل الأنصاري ، والدكتور أحمد شرف الدين ، والدكتور عقيل أحمد عقيلي ، والدكتور رؤوف شلبي ، والدكتور محمود علي السرطاوي ، والدكتور مصطفى محمد الذهبي ، والدكتور هاشم جميل عبد الله ، وبه صدرت الفتوى في كثير من المؤتمرات والهيئات والمجامع واللجان ودور الإفتاء ، منها : المؤتمر الإسلامي الدولي المنعقد بماليزيا ، ومؤتمر القانون الجنائي بالقاهرة ، ومجمع الفقه الإسلامي بمكة المكرمة ، وهيئة كبار العلماء بالسعودية ، ولجنة الفتوى في كل من مصر والكويت والجزائر والأردن [2] .

المصرفية والإسلام أطروحة للهمشري ، أسباب تحريم نقل وزراعة الأعضاء ، مقال للطفي في صحيفة الشرق القطرية العدد ١٦٩٠عام ١٣٩١هـ .

[1] سيأتي بإذن الله تعالى ذكر هذه الشروط والضوابط بعد الانتهاء من المسألة المذكورة أعلاه .

[2] ينظر في هذا : بيان للناس ٢/ ٢٦٠ كتاب جاد الحق ، الفتاوى المعاصرة ٢/ ٥٣٢ للقرضاوي ، فتوى لطنطاوي في جريدة صوت الأزهر العدد ٦٦ عام ١٤٢١هـ ، فتوى لنصر فريد صادرة عن دار الإفتاء المصرية بتاريخ ١٩٩٧/٣/١٨م ، حوار لأحمد هاشم مع طلاب جامعة بنها منشور في صحيفة اللواء الإسلامي العدد ٢٦٥ لسنة ١٩٨٧م ، إجابة لبخار في باب : اسألوا أهل الذكر ، في صحيفة المساء المصرية عام ١٩٨٧م ، أحكام نقل الدم ، كتاب للعرجاوي ، الحق الواضح ، كتاب لسعدي ، شفاء التباريح والأدوات في حكم التشريح ونقل الأعضاء ، كتاب لليعقوبي ، ضوابط نقل وزراعة الأعضاء البشرية ، بحث للأنصاري ، الأحكام الشرعية للأعمال الطبية ، كتاب لشرف الدين ، حكم نقل الأعضاء في الفقه الإسلامي ، كتاب للعقيلي ، وجهة نظر لشلبي في المسألة ، منشورة في جريدة الشرق الأوسط العدد٣٧٢٥ لعام ١٩٨٩م ، زرع الأعضاء في الشريعة الإسلامية ، بحث للسرطاوي ، نشر في مجلة الدراسات الأردنية المجلد ١٢ العدد ٣ عام ١٤٠٥هـ ، نقل الأعضاء بين الطب والدين ، كتاب للذهبي ، بحث منشور لهاشم في مجلة الرسالة الإسلامية العدد ٢١٢ ص:

- الأدلة :

استدل المانعون لنقل وزراعة الأعضاء من إنسان حي إلى آخر بالكتاب والسنة والقياس والقواعد الفقهية والمعقول .

- أولاً : الكتاب :

أ – قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [1] .

وجه الدلالة : أن الله تعالى نهانا أن نلقي بأنفسنا في مواطن الهلكة ، وإقدام الشخص على نقل جزء من أعضائه البدنية هو في الواقع سعى لإهلاك نفسه في سبيل إحياء غيره ، وليس ذلك مطلوباً منه ، لأنه بالقطع للعضو لابد أن يفقد هذا العضو منفعته والإنسان أولى بنفسه من غيره [2] .

ب – وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [3] .

وجه الدلالة : أن الآية الكريمة دلت على تكريم الله للآدمي ، وهذا التكريم شامل لحل حياته وما بعد مماته ، وانتزاع العضو منه مخالف لذلك التكريم سواء في حال الحياة أو بعد الموت [4] .

ج – قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [5] .

٧٩، انعقد مؤتمر ماليزيا في إبريل سنة ١٩٦٩م انظر : مجلة البحوث الإسلامية العدد ٢٢ عام ١٤٠٩هـ ، نقل الأعضاء بين الطب والدين ، كتاب للذهبي ، بحث منشور لهاشم في مجلة الرسالة الإسلامية العدد ٢١٢ ص : ٧٩ ، انعقد مؤتمر ماليزيا في إبريل سنة ١٩٦٩م انظر : مجلة البحوث الإسلامية العدد ٢٢ عام ١٤٠٩هـ ، انعقد مؤتمر القانون الجنائي بالقاهرة في مارس ١٩٨٧م برئاسة الدكتور محمد نجيب حسني ، قرر المجمع بالأغلبية في دورته الثامنة في ٧ جمادى الأولى عام ١٤٠٥هـ ، أجازت لجنة الفتوى بالأردن نقل الأعضاء بشروط ، انظر : بحوث مجمع الفقه الإسلامي ، صدرت الفتوى بالكويت من مكتب الإفتاء برقم ٨٤/٤٩٧ ربيع الآخر عام ١٤٠٥هـ وأجازت بالشروط ، لجنة الفتوى بالأزهر رقم ٤٩١ عام ١٣٦٨هـ ، دار الإفتاء المصرية مسجل ٨٨ مسلسل ٢١٢ ص ٩٣ ، صدرت الفتوى بالجزائر عن لجنة الإفتاء للمجلس الإسلامي الأعلى بتاريخ ٦ ربيع الأول ١٣٩٢هـ وأجازت النقل بشروط .

[1] سورة البقرة الآية : ١٩٥ .

[2] انظر : نقل وزراعة الأعضاء الآدمية ، السكري ص : ١٠٧ .

[3] سورة الإسراء الآية : ٧٠ .

[4] أحكام الجراحة ، للشنقيطي ص : ٣٥٩ – ٣٦٠ .

[5] سورة النساء الآية : ٢٩

وجه الدلالة : أن الله سبحانه قد نهى الإنسان عن قتل نفسه أو قتل غيره سواء كان بسبب مباشر أو غير مباشر ، فالنهي هنا عام بتناول جميع الأسباب التي تؤدي إلى المنهى عنه وهو قتل النفس ، ومن هذه الأسباب النهي عنها أن يبرم شخص اتفاقاً مع آخر ليأخذ جزءا من جسده [1] .

د – ما حكاه القرآن الكريم عن الشيطان : ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّه ﴾ [2] .

وجه الدلالة : أن نقل الأعضاء فيه تغيير لخلق الله فهو داخل في عموم هذه الآيات الكريمة ، ويعتبر من المحرمات لذلك [3] .

– ثانياً : السنة :

أ – ما رواه ابن عباس – رضي الله عنهما – قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " لا ضرر ولا ضرار " [4] .

وجه الدلالة : أن قطع العضو من شخص لزرعه في آخر ، فيه إضرار محقق بالشخص المقطوع منه ، وشرط إصلاح الأضرار ألا يكون بأضرار أخرى على ما جاء في نص الحديث ، فيكون داخلا في عموم النهي ويحرم فعله [5] .

ب – ما جاء عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – أنه قال : لما هاجر النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو الدوسي ، وهاجر معه رجل من قومه ، فاجتووا المدينة فمرض فجزع فأخذ مشاقص له فقطع بها براجمه فشخبت يداه حتى مات ، فرآه

---

[1] نقل وزراعة الأعضاء ، السكري ص : ١٠٨

[2] سورة النساء الآية : ١١٩

[3] انظر : الامتناع والاستقصاء ، السقاف ص : ١٥ـ١٦

[4] رواه ابن ماجة في السنن ٧٨٤/٢ كتاب الأحكام رقم الحديث : ٢٣٤٠ ، والدار قطني في السنن ٧٧/٣ كتاب البيوع ، والحاكم في المستدرك ٦٦/٢ كتاب البيوع رقم ٣٤٥ ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، وقال النووي : هو حسن ، انظر : الأذكار من الأبرار ص :٤٣٣

والضرر : خلاف النفع ، والضرار من الاثنين ، فالمعنى ليس لأحد أن يضر صاحبه بوجه ولا لاثنين أن يضر كل منهما بصاحبه، ظنا أنه من باب التبادل ، فلا إثم عليه .

[5] انظر : نقل وزراعة الأعضاء ، السكري ص ١١٦ ، حكم نقل أعضاء الإنسان في الفقه الإسلامي ، الشاذلي ص : ١٦٦

الطفيل بن عمرو في منامه فرآه وهيئته حسنة ، ورآه مغطيا يديه ، فقال له : ما صنع بك ربك ؟ فقال : غفر لي بهجرتي إلى نبيه – صلى الله عليه وسلم – فقال له : مالي أراك مغطيا يديك ؟ قال قيل لي : لن نصلح منك ما أفسدت ، فقصها الطفيل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم وليديه فاغفر " [1] .

وجه الدلالة : أفاد الحديث أن من تصرف في عضو منه بقطع أو نقل وما إلى ذلك ، فإنه يبعث يوم القيامة ناقصا منه ذلك العضو عقوبة له ، لأن قوله : (لن نصلح منك ما أفسدت) لا بتعلق بقتل النفس ، وإنما بتعلق بجرح براجمه وتقطيعها [2] .

ج – ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : كسر عظم الميت ككسر عظم الحي في الإثم .

وجه الدلالة : أفاد الحديث أن الحي يحرم كسر عظمه أو قطع أي جزء منه ، وكذا الميت لأي سبب إلا الحي لسبب أذن الشارع فيه [3] .

– ثالثاً : القياس

أ – أن حرمة المال أقل من حرمة النفس ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتوقي كرائم الناس ، فمن باب أولى وأحرى أن تتقى أعضاؤهم [4] .

ب – لا يجوز استقطاع الأعضاء البشرية كما لا يجوز استقطاع الأبضاع بجامع كون كل منهما من أعضاء الجسد [5] .

– رابعا : القواعد الفقهية :

أ – " الضرر لا يزال بالضرر " ، " والضرر لا يزال بمثله " [6] .

---

[1] رواه مسلم في الصحيح ١/٤٩ – ٥٠ كتاب الإيمان رقم ٣١١ ، والمشاقص جمع مشقص وهو السهم الذي فيه نصل عريض ، والبراجم رءوس السلاميات من ظهر الكف إذا قبض الشخص كفه نشزت وارتفعت ، وتشنجت يداه أي جرى دمها ، انظر : المصباح المنير ص : ٤٢ ، ٣٠٦ ، ٣١٩ .

[2] انظر : الامتناع والاستقصاء ، السقاف ص : ٢٠ ، نقل وزراعة الأعضاء ، السقاف ص : ١١ .

[3] سبق تخريجه .

[4] انظر : جنون العلم في زراعة الأعضاء ، العدوي ص : ٣٤ ، الامتناع والاستقصاء ، السقاف ص : ٢١ .

[5] انظر : نقل وزراعة الأعضاء ، السكري ص : ١١٨ – ١١٩ .

[6] المرجع السابق ص : ١١٦ – ١١٧ .

وجه الدلالة : أن هاتين القاعدتين تتضامنان المنع من إزالة الضرر بمثله ، وذلك موجود في هذه المسألة : حيث يزال الضرر عن الشخص المنقول إليه بضرر آخر يلحق الشخص المتبرع [1] .

ب – ما جاز بيعه جازت هبته وما لا ، فلا [2] .

وجه الدلالة : دلت القاعدة على أن ما لا يجوز بيعه لا تجوز هبته ، إذاً فلا يجوز التبرع بالأعضاء البشرية لا من حي لمثله في حال الحياة ولا بعد الممات [3] .

ج – قاعدة سد الذرائع ، قالوا : إن القول بالجواز يفتح باباً يؤدي إلى مفاسد كثيرة ويعرض حياة الناس للمتاجرة والاستغلال ، وليس أدل على ذلك من ظهور عصابات عالمية للتجارة في الأعضاء الآدمية ، تقوم بأعمال القتل والسطو والتهديد وتستخدم الأطفال المعاقين والقصر والمصابين بتخلف عقلي كمصدر لتوريد الأعضاء [4] .

– خامسا : المعقول :

أ – أن جسم الإنسان ملك لله تعالى ، خلقه الله تعالى له ، لينتفع به ، فلا يملك الإنسان أن يتصرف فيه ؛ بالهبة أو التبرع أو الوصية أوالبيع [5] ، لأنه يشترط لصحة التصرف في الشيئ أن يكون الإنسان مالكاً له ، أو نفوحاً في ذلك من قبل مالكه الحقيقي .

ب – أن نقل عضو من إنسان لآخر فيه نوع من التمثل ، وقد نهينا عن المثلة ، لأن فيها تشويهاً ونكاية وقد تكون عبثاً ولهواً .

ج – أن درء المفاسد مقصود شرعاً وفي التبرع مفاسد كثيرة تربو على مصالحه : إذ فيه إبطال لمنافع أعضاء الجسم المنقولة ، لأنه قد يصاب أثناء عملية نزع أحد الأعضاء من جسده ، كما قد يؤدي ذلك إلى

---

[1] انظر : الأشباه والنظائر ، السيوطي ص : ٨٦ ، الأشباه والنظائر ، ابن نجيم ص : ٨٧ ، شرح القواعد الفقهية ، الزرقاء ص : ١٤١ .

[2] انظر : قضايا فقهية معاصرة ، السنبهلي ص : ٦١ .

[3] انظر : المنثور من القواعد ، الزركشي ٢٣١/٣ .

[4] انظر : انتفاع الإنسان بأعضاء جسم إنسان آخر ، الشاذلي ص : ٧٥ .

[5] انظر : حكم التبرع بالأعضاء ، محمد نعيم ياسين ص : ١٨٠ ، الموقف الفقهي والأخلاقي من قضية زرع الأعضاء ، محمد على البار ، ص : ١٤٢ .

الهلاك ، أو على الأقل إلى التقاعس عن أداء العبادات والواجبات [1] .

د – أن الأصل في نفس الإنسان وأعضائه التحريم ، وأن تبقي في أجسام أصحابها وأن نقلها إلى شخص آخر يجعلها لشخصين ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [2] . ولم تكن أعضاؤهم المعادة هي نفسها التي كانت لهم في الدنيا لم يبق لشهادتها عليهم أي معنى ، فلمن تعاد الأعضاء ؟ لصاحبها الأصلي أم المنقول إليه ؟

– أدلة الاتجاه الثاني :

عدد المجوزين لنقل وزراعة الأعضاء البشرية من الأحياء إلى الأحياء بشروط وقيود .

– أولاً : الكتاب :

أ – استدلوا بآيات الاضطرار ، منها :

١. ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ (سورة البقرة : ١٧٣) .
٢. ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة : ٣) .
٣. ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأنعام : ١٤٥)
٤. ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النحل : ١١٥) .
٥. ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ (الأنعام : ١١٩)

وجه الدلالة : تدل هذه الآيات الكريمة على استثناء حالات الضرورة والاضطرار من التحريم المنصوص عليه فيها ، ومن ثم إذا توقف شفاء المريض أو الجريح وإنقاذ حياته على نقل العضو إليه من آخر ، بأن لا يوجد من المباح ما يقوم به شفاؤه وإنقاذ حياته جاز نقل العضو إليه من شخص آخر [3] .

ب – استدلوا بآيات التيسير ورفع الحرج منها :

١. ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة : ١٨٥) .

---

[1] انظر : كتاب ، من الألف إلى الياء ، الشعراوي ص : ٨٢ – ٨٣ ، انتفاع الإنسان بأعضاء جسم إنسان ، الشاذلي ص : ٧١ ، قضايا فقهية معاصرة ، السنبهلي ص : ٦٧ ، نقل وزراعة الأعضاء ، السكري ص : ١٠٧ .

[2] سورة النور الآية : ٢٤ .

[3] انظر : المراجع السابقة نفسها .

٢. ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٢٨) .
٣. ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (المائدة : ٦) .
٤. ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج : ٧٨) .

وجه الدلالة : تفيد هذه الآيات أن مقصود الشارع التيسير على العباد لا التعسير عليهم ، وفي إجازة نقل الأعضاء البشرية تيسير على العباد ورحمة بالمصابين والمنكوبين ، وتخفيف للألم ، وكل ذلك موافق لمقصود الشرع بخلاف تحريم نقلها ، فإن فيه حرجا ومشقة ، الأمر الذي ينافي ما دلت على هذه الآيات الكريمة [١] .

ج – قوله تعالى : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [٢] .

وجه الدلالة : أن قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ عام يشمل كل إنقاذ من تهلكة ، وعليه فإنه يدخل فيه من تبرع لأخيه بعضو من أعضائه لكي ينقذه من الهلاك ، أو يعيد إليه بصره الذي فقد نوره [٣] .

– ثانياً : السنة :

أ – ما روي أن الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما شكا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – القمل فرخص لهما في قمص الحرير في السفر [٤] .

ب – ما روى أن عرفجة بن أسعد قطع أنفه يوم الكلاب فاتخذ أنفا من ورق فأنتن عليه، فأمره النبي – صلى الله عليه وسلم – فاتخذ أنفا من ذهب [٥].

فتدل هذه النصوص على جواز لبس الحرير لمن به حكة ، واستعمال الذهب لمن احتاج إليه ، فبناء عليه يجوز نقل الأعضاء البشرية بجامع وجود الحاجة الداعية إلى ذلك في كل [١] .

---

[١] انظر : الأحكام الشرعية للأعمال الطبية ، شرف الدين ص : ١٣٣ ، شفاء التباريح والأدواء ، اليعقوبي ص : ١٩ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٤ .
[٢] سورة المائدة الآية : ٣٢ .
[٣] انظر : شفاء التاريخ ص : ٨٤ .
[٤] انظر : فتوى لجنة الإفتاء بالمجلس الإسلامي الأعلى في الجزائر بتاريخ ١٣٩٢/٣/١٦هـ ، انظر أيضاً : مجلة البحوث الإسلامية عدد ٢٢ ص : ٧٤ .
[٥] رواه أبو داود في السنن ٥٠/٤ كتاب اللباس رقم ٤٠٥٦ .

ج – ما رواه أبو الدرداء – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله أنزل الداء والدواء ، وجعل لكل داء دواء ، فتداوا ، ولا تداوا بحرام " [٢] .

وجه الدلالة : أن الحديث أباح التداوي لكل الأمراض ، وعملية نقل الأعضاء من قبيل التداوي ، والتداوي بالمحرم ممنوع في الأحوال العادية ، أما حالات الضرورة فإن المحرم يصبح فيها مباحاً [٣] .

– ثالثا : القياس :

أ – أنه إذا جاز للإنسان الحي أن يقتطع جزءاً من جسده ليأكله حالة الضرورة [٤] ، فإنه يجوز تخريجا على ذلك جواز تبرع إنسان بجزء من جسده لا يترتب على اقتطاعه ضرر به متى كان مفيداً لمن ينقل إليه في غالب ظن الطبيب ؛ لأن للمتبرع نوع ولاية على ذاته في نطاق الآيتين الكريمتين ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (النساء : ٢٩) ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة : ١٩٥) ، ولا يباح أي جزء ، بل الجزء أو العضو الذي قطعه من المتبرع إلى عجزه أو تشويهه [٥] .

ب – أن الفقهاء – رحمهم الله تعالى – نصوا على جواز شق بطن الميت لاستخراج جوهرة الغير إذا ابتلعها الميت [٦] ، فلأن يجوز نقل أعضاء الميت أولى وأحرى لمكان إنقاذ النفس المحرمة التي هي أعظم حرمة من المال [٧] .

ج – أن الشخص يملك إذا قطعت يده أو عينه مثلا من قبل شخص آخر أن

---

[١] رواه الترمذي في السنن ١٥٦/٥ كتاب اللباس مع تحفة الأحوذي ، وأبو داؤد في السنن ٩٢/٥ كتاب الخاتم رقم ٤٢٢٣ ، والنسائي في السنن ٨/ ١٧٣ – ١٦٤ كتاب الزينة .

[٢] رواه أبو داود في السنن ، والبيهقي في السنن .

[٣] انظر : نقل الأعضاء وزرعها ، د . رشيد قباني ص : ١٢ بحث مقدم إلى مؤتمر بمجمع البحوث الإسلامية الثالث عشر ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م .

[٤] انظر : حكم الاستفادة من أعضاء الموتى ، النسيمي ص : ٥٠ .

[٥] قال بهذا الإمام النووي : لأن فيه بإتلاف بعضه لاستبقاء كله ، أنظر : مغني المحتاج ٤/ ٣١٠ .

[٦] انظر : فتوى للطنطاوي في صوت الأزهر عدد (٦٦) ٣ شوال ١٤٢١هـ ص : ٥ ، أحكام نقل الدم ، العرجاوي ٤٩٨ – ٤٩٩ ، ضوابط نقل وزراعة الأعضاء ، الأنصاري ص : ١٠ – ١١ .

[٧] انظر : قواعد الأحكام ، العز بن عبد السلام ٩٧/١ ، المغني مع الشرح الكبير ٣/ ٤١٤ ، المجموع ٥/ ٢٦٦ – ٢٦٧ ، المحلى ١٦٦/٥ .

يأخذ الدية ويملك أن يعفو عن قطع يده أو قلع عينه ، والعفو عن القلع أو القطع هو تبرع بالدية وملكيته لأعضائه تعطيه حق التصرف فيها ، وبالتالي جاز التبرع بعضو منها لشخص آخر في حاجة لذلك العضو .

– رابعا : القواعد الفقهية :

أ – الضرورات تبيح المحظورات ، المشقة تجلب التيسير ، الضرر يزال ، إذا ضاق الأمر اتسع [1] .

وجه الدلالة : أن هذه القواعد المستنبطة من نصوص الشريعة الإسلامية دلت على الترخيص والتوسيع للمتضرر بإزالة ضرره وضيقه ولو بالمحظور ، وكل ذلك موجود في مسألتنا هذه ، فالشخص المريض متضرر بتلف العضو المصاب ، كما أن مقامه يعتبر مقام اضطرار وفيه ضيق وشقة ، إذ يصل به الحال إلى درجة خوف الهلاك والموت ، كما في حالة الفشل الكلوي [2] .

ب – إذا تعارض مفسدان روعي أعظمهما ضررا بارتكاب أخفهما [3] .

وجه الدلالة : دلت القاعدة على أنه إذا وقع التعارض بين مفسدتين ، فينظر إلى أيهما أشد ، فتقدم على التي هي بأخف منها ، ولا شك أن تبرع الإنسان بعضو من أعضائه قد يحتمل بعض الضرر مثل الألم للأول والتشوه للثاني ، ولكن إذا قمنا بالمقارنة بينه وبين الأضرار الناتجة عن حرمان إنسان مريض في مسيس الحاجة إلى هذا العضو لبقائه وحياته ، لقلنا إن مفسدة هلاك الحي المتبرع له – المريض – أعظم من المفسدة الواقعة على الشخص المتبرع [4] .

ج – أن الأحكام تتغير بتغير الأزمان .

وجه الدلالة : أن نقل الأعضاء البشرية كان قبل تقدم الطب يعد ضرراً وخطراً ، والآن بعد حدوث التطور المذهل في مجال الطب أصبح

---

[1] انظر : حكم الاستفادة من أعضاء الموت ، النسيمي ص ٥٤ ، انتفاع الإنسان ، العبادي ص : ٦ .

[2] انظر : الأشباه والنظائر ، ابن نجيم ٨٤ – ٨٥ ، السيوطي ٨٣ – ٨٤ .

[3] انظر : أحكام الجراحة الطبية ، الشنقيطي ص : ٣٨٨ . انظر : الأشباه والنظائر ، السيوطي ٨٧ ، ابن نجيم ص : ٨٩ ، قواعد الفقه ، المجددي ص : ٥٦ .

[4] انظر : مجلة البحوث الإسلامية عدد ٢٢ص : ٤١ ، نقل الأعضاء من إنسان لآخر ، جاد الحق مجلة الأزهر عدد رمضان ١٤٠٤هـ ، شفاء التباريح ، اليعقوبي ص : ٢١ .

سهلا مأمون العاقبة ، فوجب تغيير الحكم بتغيير الحال ، فنقول : كان نقل الأعضاء البشرية غير مشروع وجائز في العصور السابقة ، ولكنه في الوقت الحاضر جائز ومشروع : لأنه أصبح دواء وعلاجا نافعا [1] .

- خامساً : المعقول :

أ – أن تبرع الإنسان بأحد أعضائه المزدوجة عند الأمن من الضرر يعد من باب الإيثار الذي امتدح الله تعالى به أقواما حيث قال : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر : ٩) ، بل إنه من أسمى أنواع الإيثار ما دام المتبرع به لغيره يقصد وجه الله تعالى وخدمة غيره [2] .

ب – أن الإنسان مأذون له بالتصرف في جسده بما فيه المصلحة ، فإذنه بالتبرع فيه مصلحة عظيمة فيجوز له فعله [3] .

ج – أن في هذا العمل إعمالا لمبدأ التراحم والتضامن الإنساني ، والتعاون والتعاضد بين أفراد الأمة الإسلامية ، الذي دعا إليه الإسلام ، كما أن فيه تنفيسا للكرب الذي أثاب عليه الشارع ثوابا جزيلا ، قال – صلى الله عليه وسلم – : " من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة " [4] .

- التعقيب والترجيح :

بما لا شك فيه أن الشريعة الإسلامية تقدم الحل الأمثل لكل ما تستجد من الأمور والمعاملات والمشكلات سواء كانت فردية أو جماعية ، كما أنها تقدم لجميع المسائل الكلية والجزئية التي تقع في المجتمعات البشرية حلا مرضيا للعقول الصحيحة والفطر السليمية .

وإذا كانت هذه المسألة الشائكة قد حيرت العلماء والأطباء على

---

[1] انظر : الختارات الجلية ، ابن سعدي ص : ٣٢٥ ، شفاء التباريح ، اليعقوبي ص : ٢١ .

[2] انظر : الأحكام الشرعية ، شرف الدين ص : ١٣٥ ، المختارات الجلية ، ابن سعدي ص : ٣٢٤ – ٣٢٥ ، مجلة البحوث الإسلامية عدد ٢٢ص : ٤٧ .

[3] انظر : انتفاع الإنسان بإعضاء الإنسان ، العبادي ص : ٤ – ٧ .

[4] انظر : مفهوم الموت وزراعة الأعضاء البشرية ، د . جودة سيوني ص : ٨٢ ، والحديث رواه مسلم في الصحيح كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر ، رقم الحديث : ٦٩٩ ، وأبو داؤد في السنن ٢٣٥/٥ باب في المعونة للمسلم ، حديث رقم ٤٩٤٦ .

حد سواء ، فلا بأس بأن تختلف آراؤهم وأقوالهم في الحكم عليها من الناحية الشرعية .

ونحن في هذه المسألة نجد فريقين من العلماء ، يسير كل منهما في اتجاهين معاكسين ، فريق يرى أنه لا يجوز نقل الأعضاء البشرية من الحي إلى الحي مهما كانت الظروف والحالات ، مستدلا بأن الأصل أن الإنسان ليس له التصرف في بدنه بإتلاف أو قطع شيئ منه أو التمثيل به؛ لأنه أمانة عنده لله ، وليس ملكاً له .

وفريق آخر يرى جوازه إذا كان الإنسان مضطرا إلى ذلك؛ بحيث إذا لم يتداو أدى ذلك إلى هلاكه ، ولا يوجد دواء أو علاج آخر يقوم مقام هذا العضو ، وفي الوقت ذاته لا يترتب على الاستقطاع ضرر فاحش للمعطي ، محتجين بأن الأصل إذا تعارضت المفاسد أو تكافأت ، مُنع منه وصار درء المفاسد في هذه الحالة أولى من جلب المصالح ، وإن رجحت المصالح والمنافع على المفاسد المضار اتبعت المصالح الراجحة .

ونحن من جانبنا نرى أن نقل الأعضاء من الحي إلى الحي يجوز شرعاً إذا كانت هبة أو تبرعاً دون البيع والكسب المادي ؛ وذلك لما يلي :

١. أن زرع الأعضاء البشرية مصالحه عظيمة وراجحة وأنه يحقق آمال الكثير من المرضى ، ومضاره إذا قدرت فهي في الوقت الراهن قليلة .

٢. إذا توافرت فيه شروط معينة تبعد هذه العملية من نطاق التلاعب بالإنسان الذي كرّمه الله تعالى ، ولا تحوّله إلى قطع غيار تباع وتشترى، بل يكون المقصود منه التعاون على البر والتقوى وتخفيف ألم الأخ المسلم .

٣. إذا قرر مهرة الأطباء الثقات والعدول أن هذه العملية تحقق النفع المؤكد للآخذ ولا تؤدي إلى ضرر بالمأخوذ منه ولا تؤثر على صحته وحياته وعمله في الحال أو المآل ، وأنه لا سبيل لإنقاذ المريض من الهلاك إلا زرع العضو الإنساني .

٤. إذا توافر في عمليات النقل كل الشروط والقيود والضوابط التي وضعها المجوزون لهذه المسألة ، والله تعالى أعلم بالصواب .

(للبحث صلة)

بعض أهم الأمكنة في السيرة النبوية

بقلم : العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي
تعريب : محمد فرمان الندوي

الطائف :

تبعد الطائف من مكة المكرمة في جنوب شرقيها حوالي ٤٠ – ٤٥ ميلاً ، فلم يكن هناك أيسر شارع للذهاب إليها ، تمر بها السيارات ، وكان شارعاً مسقفاً وخاماً ، وإن الشارع الذي يذهب إلى الطائف يمر مستديراً ، فيكون طويلاً ، فيقال : إن المسافة بين الطائف ومكة من هذا الشارع حوالي ١٣٦ كيلاً ، وإن الشارع الرئيس إلى الطائف وإن كان قصيراً ، لكنه كان وعراً ، وقد شُق عليه شارع ، يمر على الجبال، وهو طريق ملتو ، أعني حوالي خمسة وخمسين ميلاً ، أي ٨٩ كيلاً ، ويأتي في هذا الطريق منى وعرفات ، وقال الباحثون : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب من هذا الطريق إلى الطائف للدعوة إلى الله تعالى .

مدينة الطائف تقع على هضبة جبال السراة ، وهي مدينة جبلية في الحجاز ، يقدر ارتفاعها من سطح البحر حوالي خمسة آلاف قدم . وإن الجبل الذي تقع عليه هذه المدينة يعرف بغزوان ، وتشبه الطائف مدينة اليمن كثيراً بالنسبة إلى الحجاز في مناخها الطبيعي وانتاجاتها الأرضية .

وادي وج :

تقع الطائف في ساحة رملية ، تُعرف بوادي وج ، وقد أحاطته سفوح الجبال من جوانبها الأربعة ، وكان اسمها القديم وج ، قيل : سميت الطائف بالطائف ، لأن الحيطان قد أحاطتها من جوانبها الأربعة .

إن طقس الطائف بارد ويابس ، ويتوافر فيها الماء ، كما أن السماء تمطر مطراً غزيراً ، وقد اشتهرت بساتينها بجودة ثمارها في جزيرة العرب، ولا يزرع فيها شجر النخيل من برودة الطقس ، وهو مصيف لسكان المناطق المنخفضة المجاورة بسبب برودتها ، وتحمل هذه المدينة أهمية خاصة لأهالي مكة ، وكان في العهد الأول لها فضل أهمية ،

كما كان الآن ، فكانت تعتبر كفؤاً لمكة المكرمة ، فقالت قريش بلسانها كما جاء في القرآن الكريم : وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (الزخرف : ٣١) والمراد بالقريتين مكة والطائف .

ويوجد فرق كبير بين طقوس هذين البلدين ، فكان الأثرياء يقضون الشتاء في مكة المكرمة ، والصيف في الطائف ، وقد أبدى شاعر ثراء حبيبته ، وصلتها بالطبقة الأرستقراطية قائلاً :

تشتو بمكة نعمةً ومصيفها بالطائف

وكانت ثقيف أكبر وأعظم قبيلة في الطائف قبل العهد النبوي ، وكان لها صنم أيضاً ، يسمى باللات ، ورد ذكره في القرآن الكريم : أَفَرَأَيْتُمُ ٱللاَّتَ وَٱلْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلأُخْرَىٰ (النجم : ١٩ – ٢٠) ، وتُعرف الطائف ببستان مكة أيضاً ، لأن ثمار مكة تستورد إلى الطائف .

تقدر نسبة سكان الطائف حوالي : ٦٠,٥٠ ألفاً ، وفي وسط المدينة أكبر مساجدها ، وهو مسجد ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي يسارها قبر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وفي مقابلها في جنوب غربها قبور الشهداء المسلمين الذين استشهدوا في غزوة الطائف .

مَثناة :

بلدة صغيرة على مسافة ثلاثة أميال ، أو أقل من مدينة الطائف نحو جنوب غربها ، وتعتبر جزءاً من الطائف ، وهي قريبة من أصل الطائف ، التي كانت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

بُني هنا مسجدان في بستانين صغيرين ، يعرف أحدهما بمسجد علي بن أبي طالب ، وآخرهما بالمسجد الحبشي ، فأحد المسجدين بني في الموضع الذي استراح فيه النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما جُرح ، والذي قدم فيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم عداس مولى نصراني لعتبة وشيبة ، طبقاً من العنب ، وبين هذين المسجدين واد يعرف بوادي وج ، يرى أن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين قد حاصروا الطائف في هذا الموضع ، في غزوة الطائف ، ويسمى في الطائف البستان عامة بالحائط ، لأن كل بستان كان محاطاً بالحائط ، فسمي بالحائط ، وقد استعمل في مواضع متعددة من كتب السيرة للبستان كلمة الحائط .

جدة :

تقع جدة على ساحل البحر في الجانب الغربي على مسافة ٤٧ ميلاً (٧٥ كيلاً) من مكة المكرمة ، وهي أعظم مدن الحجاز ، كانت أولاً قرية صغيرة ، تسكن فيها وفي ضواحيها قبيلة قضاعة قبل الإسلام ، وفي جنوبها على مسافة ١٢ – ١٣ ميلاً قرية ساحلية باسم الشعبية ، كانت ميناء هذه المنطقة أصلاً ، لكنها لم تكن أحسن وأسهل ميناءً ، فذكر سكانها مشاكلها ووعورتها لسيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه زمن خلافته ، فاختار سيدنا عثمان رضي الله عنه جدة بدلاً منها .

يروى أن سيدنا عثمان رضي الله عنه قدم إلى جدة واغتسل في بحرها، فكان هذا العمل نوعاً من الافتتاح ، ورد ذكر جدة في زمن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً ، وذلك أن قريشاً لما أرادوا بناء الكعبة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، كانوا في حاجة إلى أخشاب وغيرها من الأدوات اللازمة ، وعلموا أن باخرة قد اصطدمت بعاصفة وانكسرت أجزاؤها في جدة ، فاشتروا هذه الأدوات ، ونصبوها في بناء الكعبة .

بدأت جدة تتطور بعد ما صارت ميناءً لهذه المنطقة ، فلا يوجد أكبر ميناء من جدة على الساحل الشرقي من البحر الأحمر .

يمتلئ بحر جدة بالصخور كثيراً ، فلا يعرف الرُبان طرق وصول البواخر الضخمة ، إلى الساحل ، وإن موقع جدة لم يكن حسناً لكونها ميناءً فطرياً ، لكن صار ميناء كبيراً ، بقربها من مكة المكرمة ، وقد جعلت مستودعات جميلة وحسنة ، على مسافة ميل ونصف في البحر ، فزالت مشاكل هذا الساحل ، وترسو هنا كبرى البواخر البحرية .

وإن مسافة المدينة المنورة من جدة ٤٢٥ كيلاً ، وإن الشارع الذي يتجه إلى مكة من جدة على الجانب الشرقي تأتي فيه أم السلم بحرة ، جدة والحديبية . فإن بحرة في وسطها ، وهو محطة كبيرة ، والحديبية حد الحرم من هذه الجهة .

ينبوع :

وفي غربي المدينة المنورة على ساحل البحر بلدة مشهورة باسم ينبوع ، تنقسم في جزئين : أحدهما : ينبوع البحر ، وثانيهما : ينبوع النخل ، وليست بينهما مسافة كثيرة ، ومسافتها من المدينة المنورة ما بين ١٣٠ ميلاً أي ٢٢٠ كيلاً .

ينبوع النخل : يقع قريباً من ساحل البحر ، ومن خصائصها بساتينها ، يزرع فيها شجر النخيل، فيسكن فيها أهلها ، وفي شرقها جبل رضوى .

ينبوع البحر : يقع أيضاً متصلاً بينبوع النخل، على ساحل البحر، وهو ميناء، ويعرف بميناء المدينة، لكونه قريباً منها، ينزل فيه الحجاج في السابق .

رابغ :

عمران على ساحل البحر في شارع متوسط بين مكة والمدينة ، كان هذا الساحل حسناً إلى حد كبير لإرساء البواخر ، وكان فيها إمكانيات لكونها ميناء جميلة ، يبعد هذا العمران من ساحل البحر قليلاً ، كما يقع بعيداً من مكة حوالي ١٩٩ كيلاً .

الجحفة :

يقع هذا الموضع من رابغ على مسافة ٢٢ كيلاً ، ولا يوجد هنا عمران ، كان هذا الموضع في قديم الزمان إحدى محطات للشارع المتوسط بين مكة والمدينة ، وكان ميقاتاً للحجاج القادمين من مصر ، حيث يلبسون لباس الإحرام فيه ، وكان في شرق رابغ ، وفي شرقه بأربعة كيلو مترات غدير خم .

خيبر :

بلدة معروفة ، تقع في حرة في شمال المدينة المنورة ، حوالي : ١٦٥ كيلاً ، وكان موضعاً مشهوراً في القرن الأول ، وكان عدد اليهود فيها كثيراً ، وكانت لهم قلاع ، فتحها المسلمون في غزوة خيبر التي ظهرت هنا بسالة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهي الآن بلدة صغيرة ، ليس طقسها حسناً ، فلا يرغب الناس في الإقامة فيها ، ويزرع كثيراً في هذه المنطقة شجر النخيل .

الهدى :

أول قرية على شارع مكة من الطائف ، قبل عرفات ، تقع على تل عالٍ ، فكان ارتفاعها من سطح البحر كثيراً من الطائف ، فكان طقسها جيداً وحسناً .

الوجه :

ميناء في شمال الحجاز ، ويقع على ساحل البحر في غرب خيبر ،

وموقعه جميل ، وكان ميناء المدينة المنورة قبل ينبوع .

حناكية :

أرض ذات نخل مشهورة ، في شرق المدينة المنورة ، حوالي : مأة ميل ، وتكون محطة لقوافل نجد والعراق في رحلتها إلى المدينة المنورة ، وتعرف بنخل أيضاً ، وهي في واد ، وقعت فيه غزوة ذات الرقاع .

العلاء :

بلدة ذات نخل ، في شمال خيبر على الجهة الشمالية ، وموقعها مثل ديار ثمود ، ونسبة سكانها ثلاثة آلاف .

تبوك :

يقع هذا الموضع على جهة العلاء وخيبر في شارع متوسط بين دمشق والمدينة المنورة ، قصده النبي صلى الله عليه وسلم في السنة التاسعة من الهجرة ، يقع من المدينة المنورة على مسافة ٧٧٨ كيلاً ، وهنا ثلاثة ينابيع ، تسقى منها بساتينها ، وهو أهم موضع الآن في الجهة الغربية في المملكة العربية السعودية .

الحجر ، مداين صالح :

هذا الموضع في وادي القرى على مسافة أربعة أميال من تبوك ، هنا قرى قوم ثمود ، قال الله تعالى في القرآن الكريم : وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ (الحجر : ٨٠) ، ويُعرف بمداين صالح أيضاً ، يأتي ذكر هذا الموضع عن قوم ثمود ونزول العذاب عليهم .

تيماء :

قرية ذات نخل ، على جانب صحراء النفوذ ، تبعد قليلاً من تبوك في الشرق ، كان اليهود هنا كثيراً في القرن الأول ، فبالنسبة إليهم تعرف بتيماء اليهود أيضاً ، قال أعرابي يعتبر نفسه مسجوناً فيها :

إلى الله أشكو لا إلى الناس أنني بتيماء ، تيماء اليهود غريب

كان في هذه القرية قصر السموئل بن عاديا اليهودي باسم : الأبلق الفرد ، الذي ورد ذكره في شعره كثيراً ، وفي تيماء بساتين للنخيل وغيرها ، وتعد الآن تيماء أيضاً في ولاية نجد ، بدلاً من ولاية الحجاز في التقسيم السياسي .

مهد الذهب معدن الحجاز:

موضع على مسافة ٢٢ ميلاً في الشرق من المدينة المنورة، توجد فيه معادن متنوعة، ويستخرج منه الذهب أيضاً، ويعرف بالمعدن أو معدن الحجاز.

بدر:

بلدة صغيرة لها أهمية كبيرة في التاريخ الإسلامي، غزا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أول غزوة للإسلام، كان فيها عدد المسلمين: ٣١٣، وعدد الكفار ألفاً، فنال المسلمون الفتح، وكسرت شوكة المشركين لأول مرة، وأصيبوا بفادحة عظيمة، وسمى القرآن الكريم ذلك اليوم يوم الفرقان، وقد غفر لكل من حضر في هذه الغزوة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمي المسلمون الحاضرون في هذه الغزوة بأصحاب بدر، وهي صفة بارزة لهم، هذه البلدة تقع على مسافة قليلة من ساحل البحر في جنوب غرب المدينة المنورة، ومسافتها من المدينة حوالي: ١٥٥ كيلاً، وفي جنوبها تقع رابغ على مسافة ١١٨، وفي غربها موضع باسم المفرق، فالشارع الذي يتجه من المدينة المنورة إلى بدر، يخترق أحدهما من المفرق إلى ينبوع في الشمال، وثانيهما إلى مستورة ورابغ في الجنوب، وهذا الشارع الأخير يتجه إلى مكة، أغار كفار مكة من هذا الطريق في بدر، وإن المملكة العربية السعودية قد شقت طريقاً بين مكة والمدينة، هو يمر بساحة بدر.

مستورة – ودان:

بلدة في شرق ساحل البحر بين رابغ وبدر، وكان قريباً منه ودان، ويقع على جانب من واد، وكانت في غزوات النبي صلى الله عليه وسلم غزوة باسم ودان، ومسافة مستورة من رابغ أربعون كيلاً، وكان في قديم الزمان جزء من الفرع، ودان تبعد ١٢ كيلاً، في جنوب شرقها.

الأبواء:

هذا الموضع قريب من ودان، ويقع من مستورة على مسافة ٢٨ كيلاً في الشرق، فيه قبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم توفيت هنا راجعة من المدينة المنورة، فدفنت هنا، كانت هذه المنطقة جزءاً من الفرع، وكانت ودان في جنوبي غربها علي مسافة ٢٠ كيلاً.

إطلاق لفظة " الحجة " في مصطلح الحديث

(الحلقة الأولى)

أبو أنس رفيع الله المَرْوَتِيْ *

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير الخلائق محمد ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد . . .

فلا غضاضة أن السنة النبوية – على صاحبها ألف ألف تحية وسلام – المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن الكريم ، وأنها مبيّنة له ، ومفسّرة له ، قال الله عز وجل : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)[1]. فكان من الواجب أن تنقل السنة إلى الأجيال القادمة بدون أي تغير وتبديل ؛ لذا أكرم الله هذه الأمة وشرَّفها بالإسناد ، الذي به عرف الصحيح من السقيم ، وصان الله به دينه عن قول كل أفاك أثيم .

هذا وقد قَيَّضَ الله – عز وجل – لهذا الغرض العظيم النبيل ، ولإنجاز هذه المهمة الدينية الكبيرة الجهابذة والنُّبَغَاء ، الذين اعتنوا الإسناد أشدَّ العناية ، واهتموا به اهتمامًا ما بعده اهتمام ، حتى ذكروا أن الإسناد من الدين ، كما قال عبد الله بن المبارك : " الإسناد من الدين لولا الإسناد ، لقال من شاء ما شاء "[2] . وقال الإمام الثوري : الإسناد سلاح المؤمن ، فإذا لم يكن معه سلاح ، لم يقدر أن يقاتل[3] .

فأولئك الأئمة ما كانوا يروون حديثا ، إلا عن الثقة المعروف في زمانه ، المشهور بالصدق والأمانة ، عن مثله ، حتى تَنَاهَى أخبارهم ، ثم في نفس الوقت كانوا يبحثون عن أحوال أهل الأثر أشدَّ البحث ؛ ليعرفوا

---

* الأستاذ المشارك في قسم التخصص في الأدب العربي ، بجامعة ابن عباس رضي الله عنهما (كراتشي) .

1 القرآن ، ج ١٦ – ٤٤ .

2 الجامع الصحيح للإمام مسلم المتوفى ٢٦١ هـ ، بيت الأفكار الدولية ، ٢٥/١ .

3 شرح شرح نخبة الفكر للإمام المحدث على بن السلطان القارئ المتوفى ١٠١٤هـ ، دار أرقم ، ببيروت ، ص : ٦١٧ .

الأحفظ فالأحفظ ، والأضبط فالأضبط ، وأن يكشفوا الستار عن الضعيف ، وأن يُمِيطُوا اللِّثَامَ عمن يضع الحديث ، ويَتَقَوَّل على خير البَرِيَّة صلى الله عليه وسلم ما لم يقله ، ويَتَبَوَّأ مقعدا لنفسه في الجحيم ، فاحتاجوا لإنشاء الأُسَسِ والقواعد للجرح والتعديل ، وألزموا المُتَكَلِّمين في الرواة أن لا يأتوا بكلمة في الراوي ، إلا التي تناسب رتبة ذلك الراوي تجريحا وتعديلا .

ومن هنا وَلَّوْا عنايتهم إلى فن معرفة الألقاب ، فقيَّدوا شاردها وواردها ، ووضعوا فيها الكتب ، التي تُسلِّط عليها الأضواء ، وتُبَيِّن معانيها ، ومكانة الراوي في علم الحديث ، بَيْدَ أنه ثَمَّةَ الألقاب ، التي لُقِّب بها مئات حملة الحديث ، ولكن الرغم من ذلك كله تحتاج إلى العناية أكثر ؛ فإن الذي ذُكر فيها لا يروي الغُلَّةَ ، ولا يشفي العِلَّةَ ، ومن تلك الألقاب (الحجة) ؛ لإنه ذُكِر في تعريف هذا اللقب التحديدات ، التي لا نجد لها أثرا عند السلف ، ولقد بَعُدَتِ الشُّقَّةُ بين هذه التحديدات وبين ما تُلَوِّح إليه الكلمات ، الواردة في من لُقِّب بالحجة في زمن السلف ؛ لذا شَمَّرتُ عن ساعديَّ لتوضيح هذا اللقب أكثر ، مع الاعتراف بأن علمي قليل ، وقلمي كليل ، ولكن الله هو الموفِّق والمعين .

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم ، وموجبا للفوز لديه في جنات النعيم ، وأن ينفع به العباد في عامة البلاد ، وأن يلهمني الصواب والسداد . آمين .

تعريف الحجة لغةً :

الحجة لغةً : البرهان ، وما دفع به الخصم . قال الأزهري : " الحجة : الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة " [1] .

الحجة عند بعض المحدِّثين :

عندما نَخُوضُ غِمَارَ كتب مصطلح الحديث ، ونشقُّ عُبَابَ الكتب ، التي تُسلِّط الأضواء على ألقاب حملَةِ الحديث ، فإننا نَعْثِرُ على

[1] لسان العرب للإمام العلامة ابن منظور المتوفى ٧١١هـ ، مطبعة دار الإحياء للتراث العربي ، ببيروت – لبنان ، ٥٢/٣ .

طائفة من أئمة الحديث ، الذين يَعُدّون الحجةَ من ألقاب الحفظ والرواية ، ويحدّدون للتلقيب بهذا اللقب حدًا ، ألا وهو حفظ ثلاث مائة ألف حديث ، متنًا وإسنادًا ، بأحوال رواته جرحًا وتعديلاً وتاريخًا ، ولو بتعدد الطرق والأسانيد .

قال الشيخ ملا على القارئ : " الحجة : من أحاط علمه بثلاث مائة ألف حديث ، متنًا وإسنادًا ، وبأحوال رواته جرحًا وتعديلاً وتأريخًا [1] .

وقال الحافظ المَنَاوِي : " الحجة : من أحاط علمه بثلاث مائة ألف حديث ، تجريحًا وتعديلاً ، ولو بتعدد الطرق والأسانيد [2] . وقال محمد على التها نوي : " الحجة : الذي أحاط علمه بثلاث مائة ألف حديث ، متنًا وإسنادًا ، وأحوال رواته جرحًا ، وتعديلاً ، وتاريخًا [3] .

الحجة عند السلف :

هذا وإذا تدبرنا في الكلمات الواردة في المُلَقَّبين بالحجة ، وألقابهم ما عدا هذا اللقب ، التي لَقَّبهم بها أئمة الجرح والتعديل ، فيتجلّى لنا كل الجلاء ، أن الحجة تطلق في الحقيقة على من قوله سند ، وبرهان في الحديث عند النزاع ، ويرجع إليه الناس ، ويعولون عليه عند الاختلاف ، ويكون مجمعا على ثقته ؛ لإتقانه وثقته ، وكثرة إلمامه حول الحديث والرجال ، ويُومِي إلى هذا قول الحافظ ابن الحجر ، الذي ذكره في وصف مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ما نصه : " جعله أمامهم حجة ، يرجع إليه ، ويعول عند الاختلاف عليه " [4] .

فهذا الحافظ ابن حجر لقد فسَّر الكلمة (الحجة) بـ " يرجع إليه ، ويعول عند الاختلاف عليه " . وقال ظفر أحمد العثماني : " الحجة :

---

[1] جمع الوسائل في شرح الشمائل للشيخ علي القارئ ، المطبعة الشرفية مصر ، ص ٦.

[2] شرح الشمائل للإمام المحدث عبد الرؤف المَنَاوِي (ت ١٠٠٣هـ) ، ضمن جمع الوسائل ، ص ٦ .

[3] كشاف اصطلاحات الفنون للعلامة القاضي محمد أعلى بن علي التهانوي (ت ١٢٢٠هـ) . سهيل أكيدمي بمدينة لاهور ، باكستان ، ٦٢٢/١ .

[4] القول المسدد في الذب عن المسند للإمام أحمد لأبي الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٣ هـ) ، مكتبة ابن تيمية ،القاهرة ،ص ٨٥ .

من كان قوله : إنَّ في الحديث كذا ، حجة بين أقرانه ، لا ينكرون عليه ، فافهم لعلك لا تجده خلاف المتعارف في هذا الزمان " [1] .

فيكون تعريف الحجة : من يكون قوله حجة في الحديث والرجال وقت النزاع والخلاف ، ويرجع إليه عند الاختلاف .

أنواع الحجة :

والجدير بالذكر أنه ليس من الضروري أن يكون كل من لقّب بهذا اللقب ، مساويا غيرَه الموصوف بنفس اللقب في المعنى السابق ، فمنهم من يكون حجة في الإمام الذي أخذ عنه الحديثَ ، ومنهم من يكون قوله دليلا في كتاب رواه بطريقه وسنده ، ومنهم من يعتمد على قوله قَاطِنُو بلده فحسب ، ومنهم من يكون سندًا بالنسبة إلى المحدثين قَاطِبَةً ، ويكون إمام أهل زمانه ، يعتمد عليه أئمة الحديث في مشارق الأرض ومغاربها ، يحتج به أرباب الصحاح ، وتتلقى الأمة حديثه يدًا بيدٍ ؛ لحفظه وعلو شأنه ، وإذا اختلف الناس في الحديث ، فيرجعون إليه ، ويكون قوله حَكَمًا بينهم حَتْمًا وقتَ النزاع ، حتى يصبح المَرْجِعَ للمحدثين ، وهم يشدُّون إليه رحالهم ، ويأتونه من كل فَجٍ عميقٍ ، رجالاً وركبانًا ، وإليك الأمثلة ؛ فإن بالمثال يتضح المقال :

١. الفَضْلَ بن دُكَيْن وهو لقب ، واسمه عَمرو بن حَمَّاد بن زُهير بن دِرْهَم التَّيْمِي مولى آل طلحة ، أبو نعيم الملائى الكوفي الأحول . قال أحمد بن الحسن الترمذي : سمعت أباعبد الله ، يقول : " إذا مات أبو نعيم صار كتابه إمامًا ، إذا اختلف الناس في شيء فزعوا إليه " [2] . وقال الذهبي : " كان في حفظ الحديث آية من الآيات " [3] .

٢. أبو أسامة ، الحافظ الإمام الحجة ، حماد بن أسامة الكوفي . قال

---

[1] قواعد في علوم الحديث للعلامة المحقق المحدث ظفر أحمد العثماني (ت ١٣٩٩هـ) إدارة القرآن والعلوم الإسلامية ، كراتشي ، باكستان ، ص ٢٨ .

[2] تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ المتقن جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي المتوفى ٧٤٢هـ ، مؤسسة الرسالة ببيروت ، ط ٢ : ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م ، ٢٠٧/٢٣ .

[3] تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للحافظ شمس الدين الذهبي المتوفى ٧٤١هـ ، دار الكتاب العربي ببيروت ، ط ٢ : ١٤١٠هـ ١٩٩٠م ، ١٤٣/٤٩ .

الذهبي : " تلقت الأمة حديث أبي أسامة بالقبول ؛ لحفظه ودينه " [1] .

٣. أحمد بن سنان بن أسد بن حبان ، الحافظ الحجة ، أبو جعفر الواسطي القطان . قال عبد الرحمن بن أبي حاتم : " هو إمام أهل زمانه " [2] .

٤. الإمام حقًا ، وشيخ الإسلام صدقًا ، أبو عبد الله ، أحمد بن محمد بن حنبل ، شيخ الإسلام ، وسيد المسلمين في عصره ، الحافظ الحجة قال قتيبة بن سعيد : " إنه إمام الدنيا " ، وقال الهيثم بن الجميل : " إن عاش هذا الفتى سيكون حجة على أهل زمانه " [3] .

٥. معمر بن راشد ، الإمام الحجة ، أبو عروة ، الأزدي مولاهم ، البصري . عن ابن جريج قال : " عليكم بمعمر ؛ فإنه لم يبقَ في زمانه أعلم منه " [4] .

فهؤلاء الأئمة الجهابذة كان قولهم حجة في الحديث بالنسبة لجميع المحدثين ، ويدل على ذلك ما سبق ذكره من أقوال أئمة الجرح والتعديل ، وإنما اكتفيت بذكر هؤلاء تحاشياً من التطويل ، وإلا فأمثالهم مئات .

٦. محمد بن جعفر ، أبو عبد الله غُنْدَر ، البصري ، التاجر الكرابيسي الطيالسي ، الحجة الثبت . قال ابن مهدي : " غندر في شعبة أثبت مني " . وروى سلمة بن سليمان ، عن ابن المبارك قال : " إذا اختلف الناس في شعبة ، فكتاب غندر حكم بينهم " . وقال أبو حاتم : " كان غندر صدوقاً مؤدباً ، وفي حديث شعبة ثقة " . وقال : " في غير حديث شعبة ، يكتب حديثه ، ولا يحتج به " [5] .

٧. أبو معاوية مُحَمَّد بن خَازِم مولى بني سعد ، الإمام الحافظ الحجة ، أبو

---

[1] تاريخ الإسلام ١٤٣/٤٩ .
[2] تذكرة الحفاظ للحافظ للذهبي ، دار الكتب العلمية ببيروت ، ٨٠/٢ .
[3] الجرح والتعديل للإمام الحافظ أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧ هـ) ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند ، ٢٩٥/١ .
[4] تذكرة الحفاظ ، ١٤٢/١ .
[5] تاريخ الإسلام : ٣٥٤/١٣ .

معاوية السَّعْدِي الكُوفِي الضَرِيْرُ ، أحد الأعلام ، قال أحمد بن داود الحراني : سمعت أبا معاوية يقول : " البصراء كانوا عيالا عليَّ عند الأعمش " . وقال ابن خراش : " صدوق ، وهو في الأعمش ثقة ، وفي غيره فيه اضطراب " . قال أحمد : " أبو معاوية في غير حديث الأعمش مضطرب ، لا يحفظها حفظا جيدا " [1] .

٨. عُقَيْلُ بن خالد بن عَقِيْلُ ، الحافظ الحجة ، أبو خالد الأَموي . قال يونس : " ما أحد أعلم بحديث الزهري من عُقَيْل "[2] . وقال أبوحاتم الرازي : " عُقَيْل لم يكن بالحافظ كان صاحب كتاب ، محله الصدق " [3] .

فقد تبدى لنا بما ذكر أعلاه أن هؤلاء الأئمة لقد لقّبوا بالحجة ، وهؤلاء من الثقات ، ولكن كونهم حجة فبالنسبة إلى من أخذوا منه الحديثَ فحسب .

عبد الله بن يوسف ، الحافظ الحجة ، أبو محمد الكَلَاعي ، الدمشقي ثم التنيسي . قال ابن معين : " هو والقعنبي أثبت الناس في (الموطأ) ، وقال أيضا : " ما بقي على أديم الأرض أوثق منه في (الموطأ) [4].

المُسْنَدِي أبو جعفر ، عبد الله بن محمد بن عبد الله البخاري ، الحافظ الحجة . قال الحاكم : " هو إمام في الحديث في عصره بما وراء النهر بلا مدافعة " [5] .

فعبد الله بن يوسف ، وعبد الله بن محمد كانا ممن لقّب بالحجة ، ولكن كان ابن يوسف عنايته بالموطأ ، حتى أصبح حجة في روايته ، وكذلك ابن محمد كان حجة بما وراء النهر فحسب .

التحديدات في الحجة :

إن التحديدات التي ذكرها هؤلاء الأئمة ، في الحجة ، لا يوجد

---

[1] سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي المتوفى ٧٤٨ هـ ، مؤسسة الرسالة ببيروت ٧٣/٩

[2] تذكرة الحفاظ : ١٢١/١ .

[3] تاريخ الإسلام ٢٢٣/٩ .

[4] سير أعلام النبلاء ٣٥٨/١٠ .

[5] تذكرة الحفاظ : ٥٩/٢ .

لها أي أصل عند السلف ، ولا تشير إليها كلمات المتقدمين ، ولا أقوال المتأخرين ، التي ذكروها في ذوي الأبصار وحَمَلَة الآثار ، بل الحجة تطلق لديهم على من يرجع إليه حملة الحديث ، وقتَ اختلافهم في الحديث ، وهم يعتمدون على قوله ، ويكون قوله فصل الخطاب عند النزاع ، وأما هذه التحديدات بحذافيرها ، فهي متأخرة جدا .

قال التهانوى : " إني كنت سألت شيخنا العلامة الكوثري رحمه الله عن هذه التحديدات ، التي ذكروها في الحافظ ، والحاكم : الحجة من أين جاءت ؟ وما مستندها ؟ فأجابني بأنها اصطلاح متأخر ، لم يعرف في السلف " [1] .

الحجة فوق الثقة أو مستويان ؟

اختلفت أقوال علماء الحديث وناقديه في أن الحجة فوق الثقة في التوثيق ، أو الموصوف بالحجة والملقّب بالثقة متساويان في الرتبة ، فعند المُنْذِرِي (ت٦٥٦هـ) والأمير الصَّنْعَانِي (ت١١٨٢هـ) الحجة والثقة متساويان ، لا فرق بينهما ؛ حيث قال المُنْذِرِي تعليقا على قول ابن معين في محمد بن إسحاق : " ثقة وليس بحجة " . ما نصه : " يشبه أن يكون هذا رأيه في أن الثقة دون الحجة ، وهو خلاف المحكي عنهم في ذلك " [2] .

فكأن المُنْذِرِي غير راض بقول ابن معين ، ويشير إلى أن القول أن الحجة فوق الثقة في التوثيق غير صحيح ، بل هو خلاف لما ذكره علماء الحديث ، ولكنه ما صرَّح بأنهما متساويان ، أو أن الحجة أدنى من الثقة ، ولكن الثاني ما تَقَوَّل به أحد ؛ لذا يسعنا أن نقول أن الحجة والثقة عنده متساويان ، أما الأمير الصنعاني ، فقد صرّح بأنهما مستويان في تعليقه على قول الخطيب البغدادى : أرفع العبارات أن يقال : حجة ، أو ثقة . ما نصّه : " فالحجة ، والثقة مستويان عنده " [3] .

---

[1] قواعد في علوم الحديث : ص/٢٨ .

[2] جواب الحافظ المنذري (ت ٦٥٦هـ) عن أسئلة في الجرح والتعديل ، مكتبة المطبوعات الإسلامية ، ط : ٣ (١٤٢٦هـ) ص/٥٦ .

[3] توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار ، للعلامة أبي إبراهيم محمد بن إسماعيل المعروف بالأمير الصنعاني ١١٨٢هـ ، المكتبة السلفية ، المدينة المنورة :٢/٢٦٤ .

وهذا ولقد عثرت في هذه الدراسة على أقوال غير واحد من أئمة الحديث ، التي تدل على أن الحجة فوق الثقة في التوثيق ، وإليك الأمثلة :

قال الخطيب : " فأما أقسام العبارات بالأخبار عن أحوال الرواة ، فأرفعها : أن يقال :

حجة ، أو ثقة " [1] . وقال السخاوي (ت٩٠٢هـ) : " فكلام أبي داود يقتضي أن الحجة أقوى من الثقة ، وكانت هذه النكتة قدمها الخطيب ؛ حيث قال : " أرفع العبارات أن يقال : حجة ، أو ثقة " [2] . وقال الشُمُنِّي : " كلام أحمد وابن معين أن الوصف بثقة دون الوصف بالحجة " [3] . وقال الذَّهَبِي : " والحافظ أعلى من المفيد في العرف ، كما أن الحجة فوق الثقة " [4] .

وَزِدْ على ذلك أن قول أئمة الجرح والتعديل " فلان ثقة ، ولكنه ليس بحجة " في كثير من الرواة ، أيضا يدل على أن الثقة لديهم أدنى من الحجة ؛ فإنهم لا يرضون بأن يُلقِّبوا الراوي بما هو ليس فيه ؛ ويعرف من له أدنى علاقة بعلم الجرح والتعديل ، أن هؤلاء العلماء الجَهَابِذَة لهم يد طولى في التجريح والتعديل ، وهم لا يُلقِّبون راويًا إلا بما هو يلاقي رتبته في علم الحديث ، ومكانته من حيث القبول والرد ، كما أنهم لا يطعنون في راوٍ إلا بكلمة مناسبة دون مبالغة ولا تقصير ، وها أنا ذا أضرب للقارئ بعضَ الأمثلة :

١. قال أبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو : قلت : ليحيى بن معين — وذكرت له الحجة — فقلت : محمد بن إسحاق منهم ؟ فقال : "

---

[1] الكفاية في علم الرواية للحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ، دار الكتب العلمية ببيروت ، ط ٢ (١٣٩٧هـ ١٩٧٧م) ص/٢٢ .

[2] فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للإمام أبي عبدالله محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) ، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ،(٢ : ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م) ٣٣٧/١ .

[3] العالي الرتبة في شرح نظم النخبة للإمام تقي الدين أحمد بن محمد الشمّني المتوفى ٨٧٢ هـ ، مؤسسة الرسالة ، ببيروت : ص/٣٠٨ .

[4] تذكرة الحفاظ : ١٢٥/٣ .

كان ثقة ، إنما الحجة عبيد الله بن عمر ، ومالك بن أنس " [1] .

٢. وقال ابن شاهين في ترجمة عبد الرحمن بن سليمان : قال عثمان : " هو ثقة ، صدوق ، ليس بحجة " . وقال عثمان : " ليث بن أبي سليم ثقة ، صدوق ، وليس بحجة " [2] .

٣. وسئل عثمان بن أبي شيبة ، عن أشعث بن سوار ، فقال : " ثقة ، صدوق " . قيل : هو حجة ؟ قال : " أما حجة فلا " [3] .

الحجة من ألقاب التوثيق والدراية أم من ألقاب الحفظ والرواية ؟

حسب أقوال أولئك الأئمة الذين حدّدوا في تعريف الحجة حفظ ثلاث مائة حديث ، تكون الحجة من ألقاب الحفظ والرواية ، لكن الأمر ليس كذلك ، بل لا يَمُتُّ هذا اللقب إلى ألقاب الحفظ بِصِلَّةٍ ، إنه من ألقاب التوثيق والدراية ، وقد أشار إلى هذا الإمام الذهبي في قوله : " الحافظ أعلى من المفيد في العرف كما أن الحجة فوق الثقة " [4] . وإن معنى قوله : أنه كما أن الحجة فوق الثقة في التوثيق ، كذلك الحافظ فوق المفيد في الحفظ ؛ فإنه قابل بين ألقاب الحفظ وألقاب التوثيق .

وأزيد من الشعر بيتا أن صنيع علماء الحديث ، الذين صنَّفوا في مصطلح أهل الأثر ، أيضا يدل على أن الحجة من ألقاب التوثيق ؛ فإنهم قد ذكروا (الحجة) في عبارات التوثيق والتعديل ، وسيأتي ذكره في المبحث الآتي – إن شاء الله .

(للبحث صلة)

[1] تاريخ بغداد للإمام الحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى ٤٦٣هـ ، دار الكتب العلمية ببيروت : ٢٣٢/١ .

[2] تاريخ أسماء الثقات للحافظ أبي حفص عمر بن شاهين المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، دار الكتب العلمية ببيروت : ١٦٧/١ .

[3] تاريخ أسماء الثقات : ص/١٩٦ .

[4] تاريخ أسماء الثقات : ٣٦/١ .

السيرة العطرة لأمهات المؤمنين
نموذج للمرأة المسلمة المثالية

(الحلقة الثانية الأخيرة)

بقلم : أ . د . محمود حافظ عبد الرب مرزا *

إن السبب الذي تم توضيحه هو أن الله تعالى يريد أن يحفظ أمهات المؤمنين من كافة المنكرات ويطهرهن تطهيراً . وعندما تستجيب المرأة المسلمة لهذه الأحكام وتعمل بموجبها وتبدأ بتطبيق التعاليم الإسلامية في حياتها تطبيقاً فعلياً ، فإنها بذلك تحمي نفسها من كافة المنكرات والفواحش وتصبح طاهرة بإذن الله . وإذا بدأت المرأة في تحسين أخلاقها وعاداتها وأطوارها وفق التعاليم والتوجيهات القرآنية وبدأت بتطبيق تلك الآداب التي أمرها الله تعالى بتحليها فإنها ستصبح محفوظة من كافة المنكرات من تلقاء نفسها . حيث إن هذا الأمر واضح كل الوضوح وذكره الله تعالى في كتابه الحكيم ولا شك فيه بتاتاً لأنه ليس عبارة عن ترجمة للأفكار الإنسانية ، وليس جزء من اجتهاداتهم . ولأجل ذلك لم يفرض على النساء أداء الصلاة مع الجماعة ، بل فضل أن تصلي في بيتها حسبما جاء في مختلف الأحاديث النبوية عن صلاة المرأة وفضيلة أداء الصلاة في بيتها .

وإذا ما وضعنا الأيام الحالية والوضع الراهن للمجتمع بصورة عامة في عين الاعتبار ، فإننا نرى أن المرأة المسلمة تحتاج إلى الخروج من بيتها من حين لآخر . وذلك لحضور مجالس الخير والذكر ومحافل العلم والدراسة أو المشاركة في مختلف الأنشطة الطيبة والصالحة أو لقضاء بعض الأعمال اللازمة الأخرى . وإذا كانت هناك امرأة تعمل لأجل كسب القوت وتكفل أبنائها بسبب فقرها فإنه لا بأس في أن تخرج للعمل وتقضي حوائجها بل تسعى إلى الحصول على الوظائف أيضاً لسد حاجاتها . رغم أن الأصل هو أن يتم تكفلها ورعاية أولادها من بيت المال التابع للمسلمين . وإذا كانت أرملة فقيرة فإنه يستوجب تكفلها أو الزواج

* جامعة الله آباد (الهند) .

منها حتى لا تضطر إلى الخروج لأجل كسبٍ القوت وتعرض نفسها للخطر . رغم أن نسبة مثل هذه الحالات قليلة جداً . وعليه فإن لا يجب على المرأة سواء أكانت غنية أم فقيرة أن تخرج للبحث عن العمل بأسلوب يوحي بأن المرأة التي لا تعمل فيها نقص أو عيب والعياذ بالله .

وإذا ما تولت امرأة بعض المهمات فإنه لا بأس في ذلك شريطة أن تحافظ على شرفها وعرضها . وإذا كان لدى النساء متسع من الوقت وأردن الخروج مع صاحباتهن للمشاركة في أنشطة تعود عليهن وعلى الأمة الإسلامية بالنفع والفائدة ، أو يعملن في وظائف لا اختلاط فيها ولا فساد فإنه لا بأس في ذلك أيضاً ، حيث إن القرآن الكريم قد حثنا على ذلك ، وهذا ما يتقاضاه الإيمان منا أيضاً . وإذا ما اقتضت الضرورة مثل الحرب أو حالات الطوارئ أو الكوارث الإنسانية ، فإن المرأة المسلمة بإمكانها القيام برعاية وتمريض المرضى أيضاً .

وفي الواقع ، لا تعمل عدداً من النساء في وظائف تعود على المجتمع بالنفع والفائدة ككونها إخصائية في أمراض النساء والتوليد أو مدرسة في مدارس أو كليات للبنات أو ما ينفع المجتمع من خبراتهن ومهارتهن في مختلف مجالات الحياة ، ولكن للأسف الشديد ، نجدها تعمل كسكرتيرة خاصة أو مضيفة أو موظفة استقبال أو عارضة أزياء أو مروجة لبعض السلع والبضائع ، والذي يبدو لكل ذي عاقل ومن أول وهلة أنها لم تحصل على هذه الوظيفة لكفاءتها ، بل حصلت عليها لجمالها وأنها ليست إلا طعماً للطامعين والأشرار ، حيث لا حاجة إلى الخوض في تفاصيل نتائج هذه الأعمال لأنها وخيمة جداً ومتسببة في نشر الفساد الأخلاقي في المجتمع ودمار القيم الروحية والمعنوية وتفشي الفتن والمنكرات ، والعياذ بالله .

وبعد ذلك ، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [1] . ومعنى الذكر هنا أن نذكر الله تعالى بقلوبنا وألسنتنا ، ونعمل بموجب التعليمات والتوجيهات القرآنية . وذكر بأنه يجب أن يتم تلاوة ما يذكر في بيوت أمهات المؤمنين من آيات الله والحكمة . حيث نجد أن أسلوب القرآن الكريم جامع للغاية ، لأنه لم يقل تلاوة ما يأتي به جبريل عليه السلام ، أو ما تتلوه

[1] سورة الأحزاب ، آية رقم : ٣٤ .

أمهات المؤمنين أو ما يتلوه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط ، بل إن معنى هذه الآيات والحكم أعم وأشمل . والهدف هو وجوب الانهماك في تلاوة آيات الله والحكمة وتدبر معانيها والتعمق فيها والسعي إلى تطبيقها بقدر الإمكان . ولا ريب في أن الله سبحانه وتعالى هو لطيف خبير ، يعلم أحوال القلوب وما تخفيه النفوس وما ترغب فيه وما تحن إليه وتشتاق .

ومما لا شك فيه فإن عظمة أمهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهن أجمعين وفضلهن يكمن في كون بيوتهن مهبط الوحي الإلهي وموطن الحكمة الربانية . فقد تولين مهام تعليم النساء والإصغاء إلى مسائلهن ورفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ثم الرد عليهن ، وكن بمثابة همزة وصل بين الرسول صلى الله عليه وسلم والأمة الإسلامية ، فقد نقل عنهن الكثير من المسائل الفقهية والعلمية .

في حين أن كلمة " لطيف " تعني أن الله يعلم كل صغيرة وكبيرة ، ولا يخفى عليه شيء في السماوات ولا في الأرض . و " خبير " يعني أنه يعلم كل شيء ولا يخفى عليه شيء . لذا ، فإنه ليس من المناسب أن نقول: إن الأحكام والأوامر والتعاليم القرآنية لا تناسب القرن الراهن ، وأنها قد أصبحت قديمة وبالية ولا صلة لها بهذا العصر الحديث وأن الأوضاع قد اختلفت ، لذا يجب على المرأة أن تتنافس وتتسابق وتزاحم الرجال أو تسير معهم جنباً إلى جنب وتظهر كفاءتها وفعالياتها وجدارتها في كافة ميادين الحياة ، رغم أن الحقيقة هي أنها يجب عليها أن تثبت جدارتها واستحقاقها في تربية الأجيال والحفاظ على الأسرة وتكاملها ، وإذا ما وضعنا ذلك على ميزان الإسلام ، فإن هذا هو الهدف المنشود ، يقول حافظ إبراهيم:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وبعد ذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [1] .

[1] سورة الأحزاب ، آية رقم : ٣٥ .

لقد تم ذكر هذه الأوصاف بالتدريج من الأدنى إلى الأعلى ، ويتبين من هذه الآية الكريمة عمومية هذه الأحكام ، وأنها لا تخص أمهات المؤمنين فقط ، بل تعم جميع المسلمات . ولذا فإن المسلمات اللواتي اخترن الإسلام دستوراً لحياتهن وبدأن الحياة وفقاً له ، وتحلين بالأوصاف والمحاسن الأخرى المذكورة في هذه الآية الكريمة فإن الله عزوجل قد وعدهن بالمغفرة والأجر العظيم .

استهلت هذه الآية الكريمة بـ ﴿ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ ، لأن الإسلام هو إسلام الظاهر وهو عبارة عن الحركَات الظاهرة ، مما يعني أن تتحجب المرأة وتتحلى بالعفاف والحشمة ، وتلتزم بشرائع الدين الظاهرة بشكل كامل .

ومن ثم جاء ﴿ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، فالإيمان مرتبط بالباطن . ويعني إقراراً باللسان وتصديقاً بالجَنان وعملاً بالجوارح والأركان . أي أنها تلتزم بالشرائع الدينية إيماناً منها ، لا لأن أهلها يفرضون عليها ذلك ، بل يكون قلبها مقتنعاً وراضياً بها .

ويلي ذلك ﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾ ، أي تكون مداومة في عملها ، فلا تعمل بها يوماً وأسبوعاً ، ومن ثم تعود إلى ما كانت عليه ، لأن القنوت هو دوام الطاعة حتى لقاء الرحمان .

ومن ثم ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ ، فالصدق ينبع من الأعماق ، أي أن تكون صادقة في هَذا الاعتقادَ ، مقتنعة ومطمئنة ، فلا تتحدث إلا بالصدق وتتجنب الكذب ، ولا تعترض على أحكام الله ، وتصادق على ذلك بالعمل ، فتكون صادقة في قولها وعملها في آن واحد .

وعقبها ﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾ ، لأن العمل بالأحكام والتعاليم الإسلامية يحتاج إلى صَبر وبدون شَك ، فيحتاج الإنسان إلى التحلي بالصبر لتفهم هذه الأحكام والتعاليم ، ويحتاج إلى الصبر للعمل بموجبها ، لأنه قد يتعرض للاستهزاء والسخرية والاستهتار . لأن الداعين إلى المنكر كثيرون ، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر قلة قلائل ، كما أن النفس أمارة بالسوء أيضاً ، لذا فإن الإنسان يحتاج إلى الصبر في طاعة الله ، والاجتناب عن معاصيه . لذا قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [1] .

[1] سورة الزمر ، آية رقم : ١٠ .

﴿ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَات ﴾ ، فالخشوع هو الخضوع والسكون ، وهو مبني على الاستقامة . والخشوع هو لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته ،فإذا خشع القلب تبعه جميع الجوارح والأعضاء . والخشوع مقرون بالفلاح حيث يقول تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [1] .

ومن ثم ﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَات ﴾ ، فالصدقة هي برهان الإيمان، حيث يقول صلى الله عليه وسلم : " والصدقة برهان " [2] ، أي أنها برهان على صدق دعوى الإيمان . لأن الإنفاق في سبيل الله ليس بالأمر الهين وبذل المال وصرفه يحتاج إلى مجاهدة ، يقول المتنبي :

لولا المشقةُ ساد الناسُ كلُّهُمُ الجودُ يُفقرُ والإقدامُ قتّالُ

ويلي ذلك ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَات ﴾ ، فالصوم والصبر متلازمان ، لأن الصوم عبادة لا يدخلَها رياء ولا يطلع عليها أحد ما لم يقم صاحبه بإظهاره أمام الناس . حيث جاء في الحديث القدسي ما يدل على أهميته وفضله : " كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به " [3] .

ويلي ذلك ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَات ﴾ ، ومعناه حفظ الفرج عن بذل الشهوة فيما حرمه الله ، والحفاظ على الفروج يشمل حفظ العورات وغض البصر ، أي عدم إبداء العورات للآخرين وعدم النظر إلى عوراتهم أيضاً .

وفي ختام الآية ذكر سبحانه وتعالى: ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَات ﴾ ، لأن الذكر خفيف على اللسان ، ولا يحتاج إلى هيئة خاصة ، فبإمكان الشخص أن يذكر الله قياماً وقعوداً ، راقداً أو ماشياً ، ولا يحتاج إلى مشقة أو جهد على الإطلاق ، بل إلى توفيق من الله سبحانه وتعالى ، حيث يقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [4] ، الأمر الذي يعني أن التفكر والتذكر مقترنان ومتلازمان لكل إنسان عاقل يريد أن يصل إلى الله عز وجل عن طريق العلم والتفكر .

---

[1] سورة المؤمنون ، آية رقم : ١- ٢ .

[2] أخرجه مسلم (٢٢٣) في كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء (٢٠٣/١) .

[3] أخرجه البخاري (١٨٠٥) في كتاب الصوم ، باب : هل يقول إني صائم إذا شُتم (٦٧٣/٢) .

[4] سورة آل عمران ، آية رقم : ١٩١ .

كما يتبين من هذه الآية الكريمة أن هذه الأوصاف والمحاسن هي المطلوبة عند الله سبحانه وتعالى ، وأنه لا فرق فيها بين الرجل والمرأة ، رغم أن مجال عملهما مختلف عن بعضهما البعض ، فالرجل يعمل خارج البيت ويتكفل بالقوت ويتحمل مصاريف المنزل ، في حين تحتاج المرأة إلى العمل في عقر دارها وتولي زمام تربية الأبناء ، رغم أن هذا لا يستبعد تولي الرجل مسئولية تربية الأبناء هو الآخر ، إلا أن دور المرأة أكبر وريادي لأنٍ الأبناء يكونون أقرب إليها ، وإذا كانت هذه الأوصاف والمحاسن موجودة في كليهما فإن الله تعالى سيرفع درجاتهما بإذن الله تعالى .

وبعد كل هذا ، نجد أن الله سبحانه وتعالى يأمر أمهات المؤمنين وبنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين بشكل عام قائلاً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [1] .

فكما أوضحنا أعلاه ، فإن زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم هن القدوة بالنسبة لجميع النساء المسلمات ، ولذا تم ذكرهن في هذه الآية الكريمة أيضاً . فالإدناء هو التقريب ، أي اقترب فلان من فلان ، وأدناه أي قرّبه ودنا لازم ، أما أدنى فهو متعد . فالإدناء إذاً هو التقريب ، ولكن الإدناء يتعلق بحرف إلى ، أما إذا اتصل بحرف " على " فهو في معنى الإرخاء والإسدال . ومعناه هنا إرخاء ووضع الجلباب من الأعلى حتى يغطي الرأس والجسم بأكمله . ومعنى " الجلباب " الملحفة ، ويكون عادة بالرداء الفضفاض الذي ترتديه المرأة فوق ملابسها ، لأن الملابس تغطي أعضاء المرأة ، والجلباب يغطي جسد المرأة بأكملها أي من أعلى الرأس إلى أسفل القدمين . ومفهوم هذه الآية واضح جداً ويتمثل في أن على المرأة أن تضع الرداء على جسدها بأكمله وتضع جانبه على رأسها من فوق بحيث لا يظهر وجهها أيضاً . ويتضح أيضاً أن على المرأة أن تحجب وجهها عند خروجها من البيت ، وتراعي مواضع سترها وعفافها وطهرها بشكل كامل حتى لا تقع عليها عيون الفاسدين ويظهر في نفوسهم الطمع والعياذ بالله .

كما يتبين من الآيات السابقة أنه يجب علينا أن نحاسب أنفسنا جيداً ونسعى إلى معرفة أسباب خروجنا إلى الأسواق بلا عمل ، وهل

[1] سورة الاحزاب ، آية رقم : ٥٩ .

نرتدي ملابسنا وفق التعاليم الإسلامية السمحة أم لا ؟ وأنه كان يجب أن يكون الحجاب الذي ترتديه نساؤنا فضفاضاً وكثيفاً وغير ضيق على الإطلاق ، حتى إذا ما وقعت عليها أنظار الفاسدين فإنها تبتعد عنها من تلقاء نفسها لمعرفتهم بأنها عفيفة ومحصنة ، وليست من التي لا تراعي عفافها فيأخذ الطمع طريقه في نفوسهم ، فلا تتعرض للتحرش بتاتاً . ولكن الحجاب الذي ترتديه نساؤنا وبناتنا هذه الأيام لا يصلح لأن يكون حجاباً على الإطلاق ، بل أصبح يحتاج هو الآخر إلى حجاب يحجبه عن أنظار الناس . فنجده ضيقاً وخفيفاً ومزيناً ومنقشاً ، رغم أن الله سبحانه وتعالى قد منع من اختيار الزينة عند الخروج واعتبره حفرة من حفر النار . فتخرج نساؤنا من البيوت وكأنها عروسة والعياذ بالله ، الأمر الذي يلقي بظلاله على المجتمع بأسره فتتفشى فيه كافة أنواع الفحشاء والمنكر ، وهذا ما يمكن ملاحظته بكل سهولة في عصرنا هذا . فعلينا أن نقوم باعتبار التوجيهات القرآنية والإلهية بكونها دستوراً نهائياً لنا وأن نختار الطريقة التي أمرنا الله سبحانه وتعالى بدون لف ودوران .

وأيضاً يتبين من هذه الآيات الكريمة ، أنه بما أن هذه الأمور مختصة بأمهات المؤمنين فإن هذه القاعدة منطبقة على جميع المسلمات أيضاً . وأن العمل بموجبها سيعود بالفائدة والنفع على المجتمع بأسره ، لأنها خير وسيلة لإنقاذ المجتمع من أمراض لا تداوى إلا بالنهج الذي أمرنا الله عزوجل باتباعه ، لأن الدين هو عبارة عن الطريق الأمثل للعيش في هذه الدنيا وليس من الممكن معرفة هذا المنهج والعمل بموجبه دون التعمق في تلاوة القرآن الكريم ، فما أحوجنا إلى التعاليم القرآنية ؟ وما أحوجنا إلى الرجوع إلى القرآن الكريم هذه الأيام بالذات ، لأنه نزل لكل عصر ومصر ، ولا يمكن الاستغناء عنه إطلاقاً ، كما يجب علينا الاستفادة من القرآن الكريم ، والعمل بموجب تعاليمه ، لأنه هو المنفذ الوحيد الذي يضمن لنا الفوز بالدارين ، سائلين الله عزّ وجل أن يوفقنا للعمل وفق التوجيهات القرآنية السمحة وأن يجعلنا ممن يتلوه حق تلاوته آناء الليل وأطراف النهار .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

جهود ندوة العلماء لإصلاح المنهج الدراسي وتأثيره في الهند وخارجها

(الحلقة الثانية الأخيرة)

الأستاذ عبيد الرحمن الندوي*

لقد جرت التعديلات والإصلاحات على المنهج الدراسي في دارالعلوم لندوة العلماء ، حسب الظروف ومتطلبات الدهر مرات عديدة ، طوال تاريخها المجيد ، وبعد استقلال الهند لما تغير الوضع السياسي وتبدلت ظروف المسلمين وآل إليهم أن يلعبوا دورهم الهام في إقامة صرح للوطن وإسداء مساهمتهم القيمة في بناء الأمة ، إلى جانب تثقيف الشباب المسلم بالثقافة الإسلامية ، بادرت دارالعلوم إلى تعديل مناهجها الدارسية مرة أخرى ، تحقيقاً للمبادئ والأسس التي قامت عليها هذه الدار ، فقسمت المناهج الدراسية في ثلاثة أقسام بعد القسم الابتدائي ، فقسمُ (وهو ما يسمى بالمرحلة الثانوية) يهدف إلى تدريس الطلبة جميع العلوم والفنون الرائجة في المدارس الثانوية الحكومية مع تدريس العلوم الإسلامية والعربية أيضاً ، لكي يسهل على الطالب مزاولة التعليم العصري ، إذا رغب فيه حسب المناهج الدراسية المألوفة ، وقد تزود بنصيب أوفر من العلوم الإسلامية والعربية أيضاً ، فلا يخاف عليه ضياع دينه إذا غير نهج دراسته في المراحل العليا .

أما القسم الآخر (وهو ما يسمى الآن بالمرحلة العالمية) فإنه خاص بالدراسات الإسلامية والعلوم العربية مع تدريس بعض المواد الهامة من العلوم العصرية ، وبعد النجاح في الامتحان يمنح الطالب شهادة العالمية ، وبها تنتهي دراسة المواد والموضوعات التقليدية بالدار ، لتبدأ المرحلة الثالثة والأخيرة بالدار ، بقسم التخصص " ([1])

" وكانت ندوة العلماء حركة فكرية ومدرسة تربوية أكثر من حركة إصلاح مناهج التعليم فحسب ، وكانت – لو قدرالله – خطوة

---

* أستاذ بدار العلوم لندوة العلماء لكناؤ (الهند) .

[1] مراكز المسلمين التعليمية والثقافية والدينية في الهند ، ص : ٣٦ – ٣٨ .

مباركة وفتحًا يستحق التقليد في الأقطار والمجتمعات الإسلامية التي خاضت في ذلك العهد معركة الصراع بين القديم والجديد ، ولكن هذه الحركة لم تحظ بالتعاون الواسع المتحمس الذي كانت تستحقه من كلتا الطبقين: القديمة والجديدة ، لاتساع الفجوة بينهما ، ولوجود التطرف والمغالاة فيهما ، وبعض الخلافات التي حدثت في صفوف العاملين لهذه الفكرة ، وأخيرًا لا آخرًا لعدم وجود طبقة من الأساتذة والموجهين الذين قد تبحروا في الثقافتين ، وقد أحسنوا هضمها وكونوا من هذه المواد التي قد تبدو متناقضة ، رحيقًا صافيًا نافعًا ، كما تعمل النحل من الأزهار والأشجار ، وبقي معظم الشعب يتأرجح بين طبقتين : طبقة ترى العدول عن القديم ونظمه التعليمية والانحراف عنها قيد شعرة ضربًا من التحريف أو نوعًا من البدع ، وطبقة تقدِّس كل ما جاء من الغرب وتبرئة من كل عيب ونقص ، وتعتقد بأصحابه العظمة والعبقرية في جميع الآراء والمذاهب الفكرية .

ورغم ذلك كله لا تزال فكرة ندوة العلماء الفكرة الوسط والحقيقية التي تستطيع أن تنقذ نظام التعليم الديني من الانهيار وتتفادى بها الأمة الصراع بين القديم والجديد ، ووجود طبقتين متناوئتين متنافيتين ، طبقة علماء الدين ، وطبقة رجال الثقافة الحديثة ، الوضع الذي جر على كثير من البلاد الإسلامية شقاء ، وكان السبب في كثير من الأحيان في اتجاه البلادالعلماني واللاديني .

وكان لقادة هذه الفكرة ولمتخرجي مدرستها دار العلوم لندوة العلماء فضل لا يستهان به في نشر الثقافة الإسلامية ، وعرض السيرة النبوية ومحاسن الإسلام وتعاليمه في أسلوب عصري قوي وثوب قشيب ، وكان لكتابات العلامة شبلي النعماني العلمية والأدبية ولاسيما لكتبه " سيرة النبي " – صلى الله عليه وسلم – و " الفاروق " و " الغزالي " ولرسائله : " الجزية في الإسلام " و " مكتبة الإسكندرية " و " نظرة تاريخية على عالمكير " تأثير كبير في إعادة ثقة الجيل الجديد بالثقافة الإسلامية ، ومكافحة مركب النقص فيهم ، كذلك كان لتلميذه النابغة العلامة الدكتور السيد سليمان الندوي رحمه الله ، فضل كبير

في هذا الاتجاه ، وكانت المجلدات الأربعة التي أكمل بها كتاب سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) موسوعة كبيرة في السيرة وعلم التوحيد ، ويعتبر كتابه " خطبات مدراس " (١) من أقوى وأجمل ما كتب في السيرة ، وكذلك كتبه عن الشخصيات الإسلامية ، وفي البحوث العلمية ، وقد ساهم بنشاط وجدارة في حركة البلاد العلمية والأدبية والسياسية مساهمة أكسبت العلماء تقدير رجال الثقافة الجديدة ورجال العلم والأدب ، وأبعدت عنهم تهمة " الانعزالية " التي أصيب بها العلماء في عهد الانحطاط الأخير ، وكانت مجلة " معارف " التي يرأس تحريرها تعتبر من أرقى المجالات العلمية الإسلامية في العالم الإسلامي " (٢) .

عنيت دار العلوم بصفة خاصة بالقرآن الكريم وتدريسه ككتاب كل عصر وجيل والرسالة الخالدة ، فقررت درس متنه الشريف حرفًا حرفًا ، لغةً ونحوًا وأدبًا واجتماعًا وفقهًا وكلامًا ، هذا ما عدا التفاسير المقررة في الصفوف العالية ، وألزمت تدريس القرآن الكريم والحديث بالتدريج في سنيها التعليمية .

وعنيت باللغة العربية التي هي مفتاح كنوز الكتاب والسنة ، ومفتاح المكتبة الإسلامية الزاخرة والرابطة الأدبية في الشعوب الإسلامية ووجهت عنايتها إلى تعليمها كلغة حية من لغات البشر يكتب بها ويخطب ، لا كلغة أثرية دارسة لا يجاوز الأحجار أو الأسفار كما كان الشأن في الهند ، وألفت لذلك كتبًا تساعد على ذلك ، وقد أقر الناس بفضل الندوة في هذه الناحية ، وعنيت كذلك بتدريس آدابها وموادها حتى نبغ منها كتاب وأدباء ومؤلفون اعترف لهم علماء العرب بالفضل والإجادة والاقتدار على اللغة العربية .

عبر الدكتور سعيد الأعظمي الندوي مدير دار العلوم التابعة لندوة العلماء ورئيس التحرير لمجلة " البعث الإسلامي " الغراء عن آرائه وأفكاره نحوالخدمات التي قامت بها دارالعلوم التابعة لندوة العلماء قائلاً :

---

[١] نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، ونشر باسم " الرسالة المحمدية " تعريب صديقنا الفاضل الأستاذ رحمة الله محمد ناظم الندوي ، ط : دار الفتح دمشق .

[٢] الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ، ص : ٦٧ – ٦٩ .

" وقد أدركت ندوة العلماء في الهند سر اللغة العربية أول ما أدركت في نهاية القرن التاسع عشر في عام ١٨٩٢م حينما اتفقت جماعة من أهل العلم والغيرة والنظرة الثاقبة على تأسيس ندوة العلماء التي قررت تعليم اللغة العربية في الهند كلغة حية ، وقد أنشئت لتحقيق هذا الغرض جامعة إسلامية باسم " دارالعلوم " التي كانت ملتقى علماء اللغة العربية من الهند والدول العربية ، ثم قاموا بتعليم اللغة العربية وأخرجوها من زوايا الخمول إلى ساحة الحياة ، وما هي إلا مدة قليلة إذ تخرج من هذه الجامعة أفواج من علماء وأدباء اللغة العربية الذين مثلوها في جميع شؤون العلم والأدب خطابةً وكتابةً وصحافةً وحواراً .

فكان ذلك خطوة جريئة في مجال تعليم اللغة العربية قامت بها جامعة ندوة العلماء وحطمت أحلام اليأس وسوء الظن باللغة العربية ، وأعادت إليها الحياة والنشاط في بلاد كانت اللغة العربية فيها محصورة بين الكتب الدينية وفي الشروح والحواشي والتعليقات .

ومنذ ذلك الوقت تطلعت المدارس الإسلامية العربية في الهند إلى تقليد ندوة العلماء في هذا المجال ، فنرى اليوم ما نراه من التركيز على تعليم اللغة العربية ، وفتح أقسام خاصة باللغة العربية ، وإقامة فصول للتدريب عليها من جميع النواحي ، وقد صدرت مجلات وصحف باللغة العربية ، وتوسع نطاقها وتكثفت الاهتمامات الكبيرة بتعليم اللغة العربية واستخدامها في شؤون الحياة كلها في هذه البلاد [١] .

وبجوار ذلك تصرفت في مناهج الدراسة والعلوم المقررة التي تواضعت عليها المدارس الدينية في الهند من غير تفكير وبحث تصرفاً اقتضاه الزمان والمكان ، فقللت قسط بعض العلوم القديمة التي ضعفت الحاجة إليها بتغير الأحوال وانقراض كثير من الطوائف التي نبتت في العصور القديمة واندراس بعض المذاهب العقلية التي كانت قد نشأت في العصر الماضي .

وأبدلت هذه العلوم والمباحثات ببعض العلوم العصرية التي لا غنى عنها للعالم العصري الذي يريد أن يخدم دينه وأمته ، وكل ذلك ليطلع

[١] محاضرات في فن التدريس : ١٨٢ – ١٨٣ .

أبناؤها والمتخرجون منها على مقتضيات العصر ويتسلحوا بالأسلحة الجديدة للدفاع عن الدين ولا يتخلفوا عن ركب الثقافة والعلم السيار ولا ينقطعوا عن المجتمع الذي يعيشون فيه .

لقد نجحت هذه الدار في أداء رسالتها نجاحًا باهرًا ، إذ برز في صفوفها علماء كبار قاموا بخدمات جليلة في نشر الدين وتعاليمه بأسلوب عصري جذاب ، كما وضعوا كتبًا قيمة في الأدب وعلم الكلام والتاريخ والسيرة النبوية الشريفة ، الأمر الذي ساعد على تكوين مكتبة زاخرة قيمة لا تزال مرجعًا للطلبة والباحثين والعلماء إلى اليوم ، وقد نشأ في رحابها أيضًا بعض الأدباء الذين لهم صيت ذائع ، ومكانة بارزة في اللغة العربية ، حيث اعترفت بسعة اطلاعهم وغزارة علمهم وأسلوبهم الممتع كبار الشخصيات الأدبية والعلمية ليس في داخل البلاد فحسب ، بل في العالم العربي أيضًا ، ونخص من هؤلاء بالذكر فضيلة الشيخ العلامة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، وقد كان من بين هؤلاء أيضًا المغفور له فضيلة الشيخ مسعود عالم الندوي منشيء مجلة " الضياء " العربية ، والشاعر عبد الرحمن الكاشغري الندوي ، صاحب دواوين عديدة باللغة العربية أيضًا ، والشيخ محمد ناظم الندوي ، إلى جانب علماء أفذاذ ، يعتبرون من أساطين العلم والفن ([1]) .

إلى جانب هذه المهام الجليلة التي حققتها الدار وتخرج عدد ضخم من العلماء ، أدت دارالعلوم ندوة العلماء خدمة جليلة لا تنسى نحو اللغة العربية في هذه البلاد وترويجها ونشرها ، فهذه الدار لها فضل المبادرة إلى وضع كتب دراسية باللغة العربية ، منذ المرحلة الابتدائية إلى المرحلة العليا ، بحيث يسهل تدريسها للطلبة الهنود ، وكان ذلك أمرًا صعب التحقيق عسير المنال وخاصة في بلد كالهند ، حيث تتباين اللغات وتتغاير اللهجات ، ولكن أساتذة هذه الدار ، جعلوا هذا الحلم الذي ما انفك يراود أذهان رجال التعليم والفكر في هذه البلاد منذ أمد طويل ، حقيقة مشهودة ، ولاقت سلسلة هذه الكتب الدراسية رواجًا عظيمًا في البلاد ، إذ أدرجت بعض الجامعات الهندية عدداً

[1] مراكز المسلمين التعليمية والثقافية والدينية في الهند ، ص : ٥٠ .

من هذه السلسلة ضمن مناهجها الدراسية واكتشفت بعد التجربة أنها خير وسيلة وأنجع سلسلة لتدريس اللغة العربية وآدابها للطلبة الهنود في مختلف المراحل من التعليم ، والفضل في تحقيق هذه الغاية إنما يرجع إلى هذا الرهط من متخرجي الدار الشبان ، الذين كرسوا جهودهم في هذا السبيل تحت إشراف السيد مدير الدار .

كما نجحت الدار في إقناع رجال التعليم الديني والمعاهد الإسلامية إلى ضرورة تعديل المناهج الدراسية وإدخال التغييرات عليها حسب متطلبات العصر وضرورات البيئة والمجتمع ، مع الحفاظ على الصبغة الدينية والتزام تدريس العلوم الإسلامية وتثقيف الجيل على هدى من الدين والقيم الأخلاقية ، ونتيجة له أقيمت عدة معاهد إسلامية في مختلف أنحاء البلاد على البلاد على نمط دار العلوم التابعة لندوة العلماء ، ومما يلاحظ بعين الاعتبار ، أن المدارس الملحقة بدارالعلوم ، بين صغيرها وكبيرها يتجاوز عددها ٣٠٠/ مدرسة في الهند وخارجها .

وبالجملة اجتهدت ندوة العلماء أن تخرج رجالاً يضطلعون بأعباء الدعوة الإسلامية في هذا العصر المتجدد المتطور ، ويستطيعون أن يشرحوا مزايا الشريعة الإسلامية وجمال مدنية الإسلام وخلود رسالة الإسلام بلغة يفهمها أهل العصر بأسلوب يستهوي القلوب ، ويكونوا أمة وسطاً بين طرفي الجحود والجمود وفي صراع القديم والجديد ([1]) .

وقد أثر المنهج الدراسي لدارالعلوم تأثيراً كبيراً في المدارس والجامعات الإسلامية في الهند وخارجها ، فاختاره أصحابها ، وأدخلوه في مقررات جامعاتهم ، بذلك تحسّن مستوى تعليمهم وثقافتهم ، وقد أشاد علماء العالم العربي بمنهج دارالعلوم إشادةً بالغةً ، وأثنوا على موافقته لحاجيات العصر ومتطلبات الزمن . ولا تزال تظهر آثار إيجابية له على المستويين الوطني والدولي . ونرجو أن دائرة إفادته ستتسع مع مرور الزمان ، ويكون هذا المنهج نافعاً أكثر في المستقبل بإذن الله تعالى .

[1] مراكز المسلمين التعليمية والثقافية والدينية في الهند ، ص : ٥١ – ٥٢ .

التجليات القرآنية في شعر محمد إقبال

(الحلقة الأولى)

بقلم : الباحث محمد شمشاد عالم *

محمد إقبال هو شاعر نابغة ، و فيلسوف مبدع ، يشيع ذكره ، ويذيع صيته على مر الأيام ، وكان يتمتع بقلب كبير و منير ، سعى بكل ما في وسعه ، أن يصبغ الأمة المسلمة من جديد بصبغة الإسلام ، " صِبْغَةَ اللهِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ، وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُوْنَ " .

وهو عالم روحي ، قد حاول طول حياته أن ينشّىء المسلمين نشأة جديدة ، وأن يسنّ لهم طريقة حديثة ، وهي في الحقيقة طريقة عريقة ، جذورها راسخة في غضون أوائل القرون الإسلامية ، كما حاول منذ ما بدأ قرض الشعر أن يصوغ الأمة المسلمة في ضوء أعمال عظماء الإسلام ومآثر أبطال المسلمين ، وهو صاحب فكر جوال ، فيقول الدكتور عبد الوهاب عزّام : " المفكر الحر ، والفيلسوف الذي لايسير مع الزمان ، ولايخضع لتقلب الحدثان ، والشاعر الذي ينفخ الحياة في الموات ، ويبعث في القفر ألوانَ النبات ، ويشعل الجمر الخامد في الرماد الهامد " [1] .

وجمع ما بين معارف الشرق والغرب وحِكمهما ، ولكنه لم تستأسره مذاهب فلاسفة الغرب وبريق الحضارة الغربية المنمقة ، بل نقدها نقداً لاذعاً ، وكشف الستار عن وجوهها الخادعة ، وفنّدها بحجج دامغة .

وكان محمد إقبال من مواليد السبعينيات من القرن التاسع عشر ، ومن الرجال الذين قلما يجود بهم الزمان ، ففتح إقبال عينيه في العالم الفاني وجاء إلى حيز الوجود في الفترة الحرجة التي خلّفتها الثورة الكبرى الهندية ضد الاستعمار البريطاني الغاشم وهي ثورة ١٨٥٧م ، فيقول الدكتور نجيب الكيلاني : " في هذه الفترة الحرجة المضطربة من تاريخ

---

* مركز الدراسات العربية والإفريقية ، جامعة جواهر لال نهرو ، نيو دلهي ، الهند .

[1] عزّام ، الدكتور عبد الوهاب ، محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، (٢٠١٢م) ، ص : ١١ ، القاهرة ، مصر .

الهند عام ١٨٧٣م(الصحيح ١٨٧٧م) بزغ في سماء الخلود والمجد نجم ساطع لألاء ، أخاذ الرواء ، ألا وهو نجم شاعرنا الفيلسوف ، والحكيم النابه ، والعالم المبرز ، والخطيب المفوه ، والشاعر البليغ ، والمسلم الحق (محمد إقبال)" [١] .

وهو شاعر الطموح والحب والإيمان ، ونجد في شعره عقيدة ودعوة و رسالة ، ويُعَدّ من أكبر الثوار على الحضارة الغربية المادية ، ومن أعظم النقاد لها ، فيقول الإمام السيد أبو الحسن علي الندوي : " إني أحببته وشُغلت به كشاعر الطموح والحب والإيمان ، وكشاعر له عقيدة ودعوة ورسالة ، وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية المادية ، وأعظم ناقد لها وحاقد عليها ، وكداعية إلى المجد الإسلامي ، وسيادة المسلم ، ومن أكبر المحاربين للوطنية والقومية الضيقتين ، وأعظم الدعاة إلى النزعة الإنسانية والجامعة الإسلامية " [٢] .

ويبعث شعره في القاري والمتلقي علوَّ الهمة ، وسمو النفس ، وعمق الفكر ، وبعد النظر ، وهو تواق إلى سيادة الإسلام ، وحريص على تسخير هذا الكون لصالحه ، وعلى قيادة الأمة المسلمة للعالم ، ويتميز شعره من بين الشعراء المعاصرين له بالإيمان القوي بالله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعبقرية سيرته ، وكان شغوفاً بالقرآن الكريم ، ومولعاً بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتاريخ الإسلام ورجاله وأبطاله .

إقبال والقرآن الكريم :

إن فترة الطفولة تؤثر في الإنسان نفسيته وعقليته وسلوكه وخلقه تأثيراً لا يُجحد ، وتترك في نفسه خطوطاً عميقةً ، وهي الفترة التي تُحدّد مجرى حياة الإنسان ومساره ، وتقوم بيئة الطفولة بدور كبير في تشكيل شخصية الإنسان الفكرية والثقافية ، وفي تكوين ذوقه العلمي والفني ، فكل إنسان يتأثر بالبيئة التي ينشأ في ظلها ، على حسب ما تحتوي هذه

---

[١] الكيلاني ، الدكتور نجيب ، إقبال الشاعر الثائر ، ط ١ ، (٢٠١٥م) ، دار الصحوة للنشر و التوزيع ، ص : ٦ ، القاهرة ، مصر .

[٢] الندوي ، الإمام السيد أبو الحسن علي الحسني ، روائع إقبال ، (٢٠٠٤م) ، المجمع الإسلامي العلمي ، ص : ١٣ ، لكناؤ ، الهند .

البيئة على عناصر وعوامل ومؤثرات ، وهي التي يعيشها الإنسان فتُدرّبه وتُطوّره ليتغير فكره ونظرته وسلوكه وأسلوبه بل شخصيته كلها .

ومن حسن حظ محمد إقبال ، توفرت له بيئة متدينة ومحافظة ، فتفتحت عيناه في طفولته وفترته البدائية من حياته على جو روحاني ، فيقول الدكتور أكبر حسين قريشي : " ولم يكن والد إقبال ذا ثروات وصاحب أموال كثيرة ، ولكنه كان يحتل مكانة مرموقة ومحترمة في مدينته من أجل تمسكه بالدين ، وتحلّيه بالأخلاق الحسنة ، وكان مصبوغاً بصبغة التصوف والإحسان ، وقد أشار إقبال بنفسه في بعض أبياته إلى ميزته التراثية هذه ، فيقول :

الأسرة التي أكون لها مصباحاً منيراً
تتحلى هي بذوق صوفي نسلاً فنسلاً

فلذلك نشأ إقبال في بيئة صوفية ، وقام والده بتربيته الدينية ، وبتنشئته الخلقية " [1] .

ويقول الدكتور الكيلاني : " لقد كان والد (إقبال) صوفياً زاهداً ، يهتز فؤاده رهبةً وإشفاقاً ، وتدمع عيناه خوفاً ووجلاً ، كلما ذُكرت الجنة والنار ، وكلما سمع أو قرأ عن هول يوم الحشر ، ورهبة يوم الحساب " [2] .

ففي كنف أبيه الزاهد والتقي ، والبيئة الدينية ، وجو السكون الصوفي ، والأسرة المؤمنة المتصوفة ، نشأ وترعرع إقبال ، فكان من الطبيعي أن يتأثر بذلك ، فانطبع في ذهنه حب الدين ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكان إقبال يرى أباه يصلي ويتلو القرآن الكريم مواظباً عليه ، فلم يكن منه إلا أن يتأثر بذلك ، لأن الطفل يقلد ويتبع أباه وأمه في القول والعمل ، والسلوك والخلق ، فرسخ في نفسه الولوع بالقرآن الكريم ، فأصبح مولعاً به منذ نعومة أظافره ، وشُغف به ، فيواظب على قراءته وتلاوته كل يوم في الصباح ، متبعاً أباه .

ولكن والده شاء أن لاتكون تلاوة ابنه للقرآن الحكيم تلاوة عادية مثل أبناء زمانه ، فأشار عليه يوماً أن يقرأه بفهم معانيه ، ويدرك دقائقه

---

[1] قريشي ، الدكتور أكبر حسين ، تلميحات وإشارات إقبال ، أكاديمية إقبال الباكستانية ، ص : ٣ – ٤ ، لاهور ، باكستان .
[2] الكيلاني ، إقبال الشاعر الثائر ، ص : ١٣ .

وأهدافه ، كأنما أنزل عليه ، فيقول الدكتور الكيلاني : " وقد حرص أبوه على أن لا تكون قراءة (إقبال) كلمات تلقى ، وآيات تتلى ، وإنما قال له : " يا بني اقرأ القرآن كأنه نزل عليه . . . . " وفي ذلك يقول (إقبال) " ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ومن بحره ما نظمت " ، (و) كان الشيخ (أبوه) يريد لابنه أن يعي ما يقرأ ، ويفهم ما يتلو . . . ثم ماذا ؟ ثم يتصور أن هذا القرآن قد نزل عليه هو ، أي أن الله يخاطبه ويدعوه أن يعمل ويكافح ويثابر ، ويتلقى المسؤولية كاملة ، ويقوم بأعباء أخطر رسالة ، وينهض بأثقل حمل " [1] .

وكانت تلاوة إقبال للقرآن الكريم مختلفة تماماً عن تلاوة أهل زمانه ، وإليها يرجع الفضل الكبير في تذوقه للقرآن ، فكان أكبر كتاب وشخصية تأثيراً فيه مما غيّر مجرى حياته ، وسدّد فكرته ونظرته ، فيقول المفكر الإسلامي أبو الحسن الندوي : " ذلك الأستاذ العظيم (لإقبال) هو القرآن العظيم ، الذي أثّر في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية ، ولكنه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجل حديث العهد بالإسلام ، فيه من الاستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مال ومتاع ودار وعقار " [2] .

وما زال إقبال إلى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ، يغوص في بحر القرآن العميق ، ومحيطه اللامحدود ، ويتدبر في هذا الكتاب الخالد ، ويتفكر فيه ، ويمعن النظر فيه ، مما زاده إيماناً به ، ووسع آفاق فكره ، حتى خرج بمعرفة جديدة ، ودرر فريدة ، ووجد فيه حل كل مشكلة للحياة ، وجواب كل سؤال ؛ لأن القرآن كنز لاينفد عطاؤه ، ومنبع لاتجف مياهه ، ولا يقلل فيه الإكثار منه ، فيقول الأستاذ الندوي : " ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن ، ويطير في أجوائه ، ويجوب في آفاقه ، فيخرج بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وإشراق جديد ، وقوة جديدة ، وكلما تقدمت دراسته ، واتسعت آفاق

---

[1] المرجع نفسه ، ص : ٢١ .
[2] الأستاذ الندوي ، روائع إقبال ، ص : ٤٨ – ٤٩ .

فكره ، ازداد إيماناً بأن القرآن هو الكتاب الخالد ، والعلم الأبدي ، وأساس السعادة ، ومفتاح الأقفال المعقدة ، وجواب الأسئلة المحيرة ، وأنه دستور الحياة ، ونبراس الظلمات " [1] .

ويرى إقبال أن السبب الوحيد وراء تخلف المسلمين في جميع مجالات الحياة ، هو إعراضهم عن القرآن ، وعن الامتثال به ، وتحكيمه في جميع الشؤون للحياة ، واتخاذُهم إياه مهجوراً ، فلذلك هو " يعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي يرفع الله به أقواماً ، ويضع به آخرين ، يقول (إقبال) في مقطوعة شعرية : " إنك أيها المسلم لاتزال أسيراً للمتزعمين للدين ، والمحتكرين للعلم ، ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأساً ، إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك ومنبع قوتك ، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة ، فتقرأ عليك سورة " يس " لتموت بسهولة ، فواعجبا ! قد أصبح الكتاب الذي أُنزل ليمنحك الحياة والقوة ، يتلى الآن لتموت براحة وسهولة " [2] .

وكان إقبال يستمد التوجيهات من القرآن الحكيم ، فقصائده زاخرة بروح القرآن ، فيقول سيد طالب حسين البخاري : " وكان إقبال يهتدي بالقرآن ، ويعبر في قصائده عن روح القرآن الذي كان قلبه وفؤاده مليئين به ، فيقول إقبال :

من يعلم أن الفقير الذي يحمل بين جنبيه روحَ القرآن ، يحتل آلاف مكانة عليا ؟ " [3] .

وكان إقبال يريد أن يبدي قبل أن تُوفى ما يخطر بباله ويجول في ذهنه من معان دقيقة ، وآراء قيمة ، وأفكار جديدة مستلهمة من القرآن الكريم ، وأن يسجلها في صفحة القرطاس ، فيقول مشيراً إلى ذلك في رسالة إلى السير رأس مسعود ، مكتوبة بتاريخ ١٩٣٥/٥/١٣م : " لعلني أمرّ بمرحلة أخيرة من مراحل حياتي ، وأتمنى أن أقدم آرائي وأفكاري المستلهمة من القرآن الحكيم قبل أن ألفظ أنفاسي الأخيرة ، وأريد أن

---

[1] الندوي ، الأستاذ السيد أبو الحسن علي الحسني ، شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، مطبعة دار الكتاب العربي ، (١٩٥١م) ، ص : ٣٠ – ٣١ ، القاهرة ، مصر .
[2] المرجع نفسه ، ص : ٣١ .
[3] البخاري ، سيد طالب حسين ، مقالة : مكاتيب اقبال كا اسلامي تناظر (المنظور الإسلامي لرسائل إقبال) ، موقع بزم اردو لائبريري .

أقدم ما بقي من قوتي وطاقتي لخدمة كتاب الله الخالد ، لكي عند ما أزور جدّك (صلى الله عليه وسلم) يوم الحساب ، يطمئن قلبي ويستريح بما وُفق لي من خدمة الدين العظيم الذي بلّغه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلينا جميعاً "[1] .

ونجد في شعره وقصائده التجليات التاريخية والحقائق الثابتة والنتائج العميقة والاستنتاجات القيمة ، فدواوينه ومجموعاته الشعرية حافلة وعامرة بأمثلتها ونماذجها ، فما هو سببها الرئيس ووجهها الأساسي ؟ فيجيب الأستاذ الندوي عن ذلك قائلاً : " وقد دله على الوصول إلى تلك الحقائق والنتائج العميقة فهمه العميق للقرآن ، ودراسته المخلصة والمتواصة لهذا الكتاب المعجز "[2] .

وهذا ما أدلى به الأستاذ نور عالم خليل الأميني ، فقال : " لا يمكن لشاعر أن يقرض مثل هذه الأبيات والقصائد المليئة بالحقائق التاريخية والنتائج العميقة ، والمتحلية بحب الله – عز و جل – ودينه ، وحب رسوله (صلى الله عليه وسلم) وسنته ، إلا من درس القرآن الكريم دراسة متواصلة ومتأنية ، وفهمه فهماً عميقاً ، ومن أحبه حباً قلبياً ، وعشقه عشقاً متفانياً "[3] .

ويقول الأستاذ أحمد حسن الزيات : " وإذا كان في الشعراء الصوفيين من عطّر مجالس الذكر بفضائل الإسلام ، وشمائل النبوة ، فليس منهم من بلغ مبلغ إقبال في فقه الشريعة ، وعلم الحقيقة ، والتأمل الفلسفي في كتاب الله ، والنظر العلمي في كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) "[4] .

ويرى الدكتور إقبال أن القرآن الحكيم هو الكتاب المعجز الوحيد الذي تعتمد عليه سعادة الجنس البشري والأجيال الإنسانية الراهنة

---

[1] نفس المرجع .

[2] الإمام الندوي ، روائع إقبال ، ص : ٢٠٩ .

[3] هذا ما استمع إليه الباحث خلال تلقي الدرس بالجامعة الإسلامية دار العلوم ، ديوبند ، الهند ، (٢٠٠٧م) .

[4] إقبال ، محمد ، ديوانه ، إعداد : الغوري سيد عبد الماجد ، الجزء الأول ، ط ٣ ، (٢٠٠٧م) ، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع ، ص : ١٣ – ١٤ ، (دمشق – بيروت) .

والقادمة ، ورقيها وازدهارها ، وهو الكتاب الذي يرشد ويهدي إلى سواء السبيل ، الإنسانية المتحيرة والتائهة في مجاهل الزمن وغياهب العصر وظلماته ، والفلسفات المعقدة الجافة التي لاتشفي الغليل ، والتي فشلت في تقديم حل مشكلات الحياة ومعضلاته ، وذلك ما أشار إليه محمد إقبال في كلماته الموجزة عند ما قدّم المصحف الشريف إلى الأمير الشهيد نادر خان ملك أفغانستان " إن هذا القرآن سند أهل الحق ، في ضميره حياة وروح ، تندرج في بدايته النهاية ، به فتح عليٌّ (رضي الله عنه) باب خيبر " [1] .

ويعتقد محمد إقبال " أن هذا الكتاب كتاب خالد ، حكمته غارقة في الأزل سارية إلى الأبد ، إنه يفشي أسرار تكوين الحياة ، ويثبت الضعيف الذي تزلزلت أقدامه ، بالقول الثابت " [2] .

هذا يعكس صلة إقبال القوية بالقرآن الكريم ، وعلاقته الوثيقة به ، ويدل على ارتباطاته المحكمة به ، وإيمانه القوي به الذي لم يستطع أن يزلزله طوفان العصر الملحد وحوادثه ، كما يشير ذلك إلى حبه للقرآن الكريم الذي شغفه حباً منذ الطفولة ، وأصبح إقبال أسيراً لبهجته وروائه ، وفكرته ورؤيته ، والذي أبهره إعجازه ومعانيه ، فمن أجل ذلك كلما زاره أحد من العلماء ورجال الدين وعلمه ، وقرأعليه آية أو آيات من القرآن الكريم ، أو قص عليه نبذة عن سيرة صاحب القرآن (صلى الله عليه وسلم) لم يملك إقبال عليه نفسه فبكى قلبه ، وفاضت عيناه ، وسكبتا الدموع التي تنهمر على خديه مثل الطفل الذي يبكي على فراق أمه الحنون ، ويحن إلى لقائها ، هذا هو حب القرآن وصاحبه (صلى الله عليه وسلم) والافتتان به ، الذي كان يتمتع به إقبال ، والذي تغنى به في قصائده وأبياته ، ودعا إليه في منظومه ومنثوره ، وقام بنشره بين حله وترحاله ، وحث الشعب المسلم على اتباعه ، والاهتداء بهديه ، والتمسك بأحكامه ، والامتثال بأوامره ، والامتناع عن نواهيه .

نماذج التجليات القرآنية في شعره :

قد حفل شعر محمد إقبال بنماذج التجليات القرآنية وأمثلتها ،

---

[1] الإمام الندوي ، روائع إقبال ، ص : ٢١٠ .
[2] نفس المرجع والصفحة .

وللقرآن الكريم حضور بارز في شعره وقصائده ، فقد استلهم إقبال عددًا من الإشعاعات والإيحاءات القرآنية التي عبر بها عن تجاربه وأفكاره ومعتقداته الذاتية ، ولا ريب في أن آيات القرآن الكريم بمعانيها السامية وأفكارها العالية قد وهبت شعر إقبال الكثير من العمق الفكري ، وأثرت تجربته الشعرية ، " فلا عجب في أن تصادف شعراء ينهلون من القرآن الكريم ويعيدون كتابته في نصوصهم فهو النص الذي لا يزال عالقاً بالذاكرة العربية لخصوصيته وتميزه " [1] .

وقد استقى محمد إقبال العديد من الآيات القرآنية ، فنراه يستلهم مضمون آية كريمة أو يقتبس فكرة آية معينة ، أو يستعين بتراكيب ومفردات أو يشير إلى قصص وأشخاص ذُكروا في القرآن الكريم ، ويوظفها في نصه الشعري " وإن كثرة اقتباسه من القرآن الكريم في شعره تدل على أن كتاب الله كان دائماً على قلبه ولسانه " [2] ؛ فلذلك نلاحظ في ثنايا قصائده صدى كتاب الله الخالد وصوته ولمعاته وأضواءه .

وحاول إقبال إصلاح المسلمين والعالم جميعاً ، فيرى أنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالعودة إلى القرآن الحكيم ، وفهمه الصحيح ، فلذلك لديه رغبة حادة في الدعوة إلى النظر العميق في القرآن الكريم وتدبره " إقبال يدعو إلى تدبر آيات الكتاب الكريم التي تهدي سبيل الرشاد وتقطع الشك باليقين ، وتصلح بها حال المسلمين ، أما الشرط الذي يفرضه ، فهو ضرورة فهمها على الحقيقة التي ليس فيها من مراء " [3] .

فيقول إقبال :

لِمُلاّ أو لِصوفي أسير ! وفي القرآن للعيش الكثير
من الآيات ما أدركت شيئاً ومن " ياسين " بُغْيَتُك الحفير ! [4]

---

[1] بنيس ، محمد ، (٢٠٠١م) ، ظاهرة الشعر العربي المعاصر في المغرب ، ط ٢ ، دار التنوير ، ص : ٢٨٥ ، بيروت .

[2] الطرازي ، الدكتور عبد الله مبشر ، الشاعر الإسلامي الكبير : محمد إقبال ، مجلة " إقباليات " (عربية) ، العدد الأول (١٩٩٢م) ص : ١٠٠ ، لاهور ، باكستان .

[3] إقبال ، محمد ، ديوانه ، إعداد : الغوري ، الجزء الثاني ، ط ٣ ، (٢٠٠٧م) ، مقدمة ديوان " هدية الحجاز " (أرمغان حجاز) ، ترجمة : الدكتور حسين مجيب المصري ، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع ، ص : ٤١٥ ، (دمشق – بيروت) .

[4] نفس المصدر ، ص : ٤٦٤ .

ففي المقطوعة السابقة " يدعو إقبال إلى النظر في القرآن الكريم، وتدبر آياته البينات التي تهيب بالناس ليحيوا حياة حرة كريمة تهدي إلى ما تصلح به الدنيا والدين ، وفيها الوازع عن حياة الخمول والجمود ، ويسخر (إقبال) ممن لا هَمَّ له إلا سورة " يس " فقد جرت العادة بقراءتها في المقابر " [1] .

قد عالج محمد إقبال في شعره موضوع الحياة والعالم ، يذكر حقائقهما والحقائق فيهما ، فنلاحظ في شعره دعوة إلى إيقاظ الإنسان ووعيه وقدر نفسه ، ويرى إقبال أن هذا الكون وما فيه كله مسخّر للإنسان فعليه أن يوظّفه لصالح الإنسانية والبشرية ، فيقول الدكتور عزّام : " موضوع شعره (إقبال) الحياة والعالم ، يبيّن فيهما الحقائق ، ويكشف الأسرار ، ويوقظ الإنسان ويدعوه إلى قدر نفسه ، وتقوية ذاته ، وينادي أنك أعلى الخليقة ، وأن العالم كله مسخّر لك ، وأمامه في هذه الدعوة القرآن الكريم ، كما في الآية : " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيْ ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيْرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيْلاً ، والآية : " وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمواتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيْعًا مِّنْــهُ " [2] ، والآيات الأخرى التي تتحدث عن تسخير الكون .

فيقول إقبال في " رسالة الخلود " (جاويد نامه) :

يا إلهي مثل هذا اليوم هَبْني إن يومي مُزمَهِرٌّ فلْتُغِثْنيْ
آية التسخير فيمن أُنزلت هذه الأفلاك فيمن حيّرت [3]

ففي البيت الثاني يشير إقبال إلى الآية القرآنية : " أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَّبَاطِنَةً " [4] ، ويريد إقبال أن " يقول إن هذا العالم مسخّر للإنسان ، وإن للإنسان فيه جهاداً ، وإن لذة الإنسان وكماله في هذا الجهاد ، ومن سخّر المحسوسات فقد أنشأ عالماً من ذرة ، إن الجبال والصحارى والبحار لوح لأرباب النظر ، أيها النائم بالأفيون ، والمحتقر عالم الأسباب ! افتح عينك واعرف قدر

---

[1] نفس المصدر ، هامش نفس الصفحة .
[2] عزّام ، محمد إقبال : سيرته وفلسفته وشعره ، ص : ١٦٢ .
[3] إقبال ، ديوانه ، إعداد: الغوري ، الجزء الثاني ، ترجمة : الدكتور حسين مجيب المصري ، ص : ١٤٠ .
[4] سورة " لقمان " ، الآية : ٢٠ .

هذا العالم ، إن غايته توسيع " ذات " المسلم وامتحان ممكناته " [1] .

والدكتور إقبال هو شاعر الطُموح والأمل والرجاء فلا يقترب منه اليأس والقنوط والتشاؤم أي اقتراب ، ويرى أن اليأس والخوف والحزن أمهات الخبائث وقاطعات طريق الحياة ، فيدعو إلى العمل الدائب والجهد المتواصل ويشيد بهما ، فيقول الدكتور عبد الوهاب عزّام : " والأمل في شعر إقبال كله هو الحياة ، والجهاد الدائب هو حافظ هذه الحياة ، وإن قارىء إقبال ليروعه إعظام إقبال الأمل ، وتصويره إياه وإشادته بالعمل الدائب والجهد المستمر " [2] ، فيقول إقبال يستلهم فكرته هذه من القرآن الكريم :

عُدّة الموت قُنوط مُحبطُ والحياة الحق أن " لَا تَقْنَطُوْا " [3]

ففي الشطر الثاني من هذا البيت يلمح إقبال إلى قوله تعالى : " قُلْ يعِبَادِيَ الَّذِيْنَ أَسْرَفُوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوْا مِن رَّحْمَةِ اللهِ " [4] ، ويريد أن يقول إن اليأس والقنوط هو من سموم قاتلة وعدة الموت وأسبابه ، ومن يؤمن بالله الغفور وتوحيده لايقنط ولا ييئس من رحمته ورَوحه ، فمن خلال ذلك يدعو إقبال إلى التوحيد والإيمان به والتمسك به ؛ لأنه هو أساس الدين والشرع ، ورأس كل حكمة وقوة ، وهو الذي يزيل الحزن والخوف والشك ، وينفث في الإنسان الأملَ والعمل ، و " هو الإكسير الذي يحول التراب ذهباً ، والسر الذي يتجلى منه الدين والشرع والحكمة والقوة والسلطان ، وهو الدواء الذي يميت الخوف والشك ، ويحيي العمل والأمل ، ويقهر كل صعب ، ويذلل كل عقبة " [5] .

(للبحث صلة)

---

[1] عزّام ، محمد إقبال : سيرته وفلسفته وشعره ، ص : ١٠٨ .
[2] نفس المرجع ، ص : ٨٢ .
[3] إقبال ، ديوانه ، إعداد : الغوري ، الجزء الأول ، ترجمة : الدكتور عبد الوهاب عزّام ، ص : ١٩٧ .
[4] سورة " الزمر " ، الآية : ٥٣ .
[5] عزّام ، محمد إقبال : سيرته وفلسفته وشعره ، ص : ١٠٠ .

مساهمة مولانا آزاد
و الصحافة الأردية في حركة استقلال الهند

بقلم : الأخ محمد فضيل الندوي *

من منا لا يعرف بأن الأوضاع السياسية والظروف الاجتماعية قبل استقلال الهند كانت تبعث على الأسف ، وحينما أنشأ البريطانييون شركة الهند الشرقية في عام ١٨٥٧م أصبح سكان الهند في الحقيقة عبيداً أذلاء . فكانت هذه القضية استبداداً لسكان الهند ، وكانت موامرة مدروسة لاستعبادهم . لأن الهند وحضارتها كانت مشهورة في العالم ، والجدير بالذكر أن الهند اليوم تعد من المراكز الرئيسة للثقافة والحضارة في العالم . ونهض من أرض الهند على مر العصور أدباء وشعراء عرفوا بفصاحة اللسان العربي ، وخرج منها صفوة من العلماء ورجال الفكر والقلم الذين أدوا دوراً هاماً في استقلال الهند ، ومن أهم الرجال – مولانا آزاد – ولد أبو الكلام آزاد في ١١ نوفمبر ١٨٨٨م في مكة المكرمة ، وكان عالماً مشهوراً وصحفياً ماهراً ومؤلفاً نابغاً . تعمق في مختلف الفنون والعلوم ، وكان يتقن اللغات العربية والأردية والهندية والفارسية والإنجليزية . ومن أشهر مؤلفاته (الهند تنال الاستقلال) ، هذا هو البطل الوطني الغيور الذي شارك في حركة الخلافة وحركة الاستقلال لوطنه الحبيب – واعتقل مراراً لمشاركته في حركة " عدم التعاون " ، (Non Cooperative Movement) وحركة " غادر الهند " (Quit India Movement) .

أصدر أبو الكلام آزاد مجلة الهلال الأسبوعية ، والبلاغ لتوعية أهل الهند . نشر فيها أفكاراً تحث أهل الهند على العناية بالتربية والتعليم والمشاركة في حركة الاستقلال . كانت هذه المقالات تستفز البريطانيين ، فسجنوه وقضي في السجن سنة كاملة . انتخب مولانا آزاد رئيساً للمؤتمر الوطني الهندي مرتين ، وصار أول وزير للتربية والتعليم في وزارة جواهر لعل نهرو ، مع استقلال الهند .

* باحث في الدكتوراه في القسم العربي بجامعة مولانا آزاد الوطنية الأردية ، حيدرآباد .

تحتفل الهند في الحادي عشر من نوفمبر ، يوم ميلاده كل عام ، بالعيد التعليمي الوطني ، وإن الهند باقة جميلة وأرضها خصبة ، وبهذه المناسبة يقول الشاعر عن أهمية الهند :

هند ديار الحب والود والوفا فيها قيام طاب ، طابت مسكنا
لله در الهند شبه الجنة نعم البقاع في الأراضي ، هندنا

ويقول الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله في كتابه " المسلمون في الهند " ، وكان أمراً صعباً لأهل الهند بأن يفوزوا في حركة الاستقلال ضد الإنجليز بدون مساهمة مولانا آزاد .

السعي لتحرير البلاد ومكافحة الاستعمار موضوع شغل جانباً أهم في حياة أبي الكلام آزاد وعمله في الصحافة . إنه من الشخصيات البارزة التي ساهمت مساهمة عملية نشيطة في تحرير البلاد من براثن الاستعمار الغاشم ، وكان قد كرس دورياته (الهلال – البلاغ) لكتابات صريحة ضد الإنجليز وضرورة السعي لطردهم من البلاد ، وكانت كلماته المؤثرة بمثابة اللهيب في الهشيم ، إذ تعم ناره البلاد كلها من أقصاها إلى أقصاها في وقت قصير جدا ، وتعرض أبو الكلام آزاد لمحن شديدة نتيجة لمواقفه السياسية ، فقد زج به في السجن أكثر من مرة ولفترات طويلة ، وفرضت عليه غرامات مالية ، ولكن ذلك لم يثنه عن رأيه ، وكان شديد اللهجة في الانتقاد على الدوائر الموالية للإنجليز ، ولذلك كانت له مساجلات كتابية عنيفة مع طائفة السير سيد أحمد خان التي كانت قد تمركزت في جامعة عليكره الإسلامية . أوضح أبو الكلام آزاد هذا الأمر في كتابه إذ يقول : " وكانت الزعامة السياسية للمسلمين إذ ذاك في أيدي جماعة عليكره ، وكان أعضاؤها يعتبرون أنفسهم من أتباع السير سيد أحمد خان ، ويعتقدون في سياسته ، وكانت عقيدتهم تقوم على وجوب ولاء المسلمين للتاج البريطاني والبعد عن الحركة الوطنية ، فما أن وجهت " الهلال " دعوتها الجديدة وتضاعف انتشارها واتسعت شهرتها ، حتى شعروا بأن زعامتهم في خطر ، فقاموا يعارضون الهلال .

أما مجلة " الندوة " وجريدة " وكيل " فإن أبا الكلام آزاد له إسهام كبير في رفع مستواهما وتوسيع نطاقهما ، وقد مر ذكر كلتا الجريدتين بشيء من التفصيل .

ذكر بعض الكتاب أن أبا الكلام آزاد كان قد أصدر مجلة

باللغة العربية أيضا باسم " الجامعة " ، وكانت ترمي هذه المجلة إلى توجيه النقد إلى الشريف حسين حينذاك ودعم مواقف الأسرة السعودية ، ولم تدم مدة صدورها ، ولكن من الأسف أننا لم نقف على ذكر مفصل لها في المصادر ، ولا توجد أعدادها في المكتبات في هذه الأيام .

صحيفتا " الهلال " و " البلاغ " من أهم الدوريات الإسلامية التي شهدتها العقود الأولى للقرن العشرين بالهند ، ولم تعهد الصحافة الإسلامية لجريدة تقبلاً وتأثيراً في الجمهور مثل ما تمتعت به هاتان الصحيفتان ، وكان صاحبهما يكتب كلماتها بقلم من نار وترتج بإصدارها أنحاء البلاد ، وتصبح آراؤها حديث الناس .

وقد أصدر أبو الكلام آزاد كلتا الصحيفتين على فترات . أصدر " الهلال " أولاً ثم أصدر " البلاغ " ، ثم عاد فأصدر " الهلال " ، فصدرت كل منهما مستقلة متعاقبة ، والواقع أنها كانت تمثل الصحافة المحايدة في المظهر والمحتوى والهدف ، ولكهنا صدرت بأسماء مختلفة لبعض أسباب قانونية طارئة حينذاك ، ويمكن أن نعتبرها حلقات لسلسلة واحدة .

كان أبو الكلام آزاد قد قام بجولة واسعة في الأقطار الإسلامية في العشرينيات من هذا القرن ، وبعد ما عاد من رحلته خطرت بباله فكرة إصدار دورية يمكن عن طريقها إقامة الاتصال بالشعب ، فجاء إلى كلكتا وأصدر منها صحيفة أسبوعية في ١٣يوليو عام ١٩١٢م ، وسماها " الهلال " وهو الذي كان يتولى تحريرها .

الحرية والاستقلال جزء لا ينفك لحياة البشرية الاجتماعية والشخصية والصحافة تقدم صورة خاصة أمام الناس . وكانت الصحافة الأردية قد لعبت دوراً هاماً لإثارة روح الثورة ضد الإنجليز .

أصدر والد محمد حسين آزاد جريدة في اللغة الأردية في عام ١٩٣٨م من دلهي ، وكشف فيها عن أهداف البريطانيين ضد أهل الهند . وقامت جريدة " صادق الأخبار " و " طلسم لكنؤ " بدور كبير في حركة الاستقلال . وبعد ذلك خاف الإنجليز ومنعوا صدور مثل هذه الجرائد الأردية .

وفي عام ١٨٥٣م بلغ عدد الصحف الأردية حوالي ٣٥ صحيفة . كانت جريدة " اُردوئے معلیٰ" جريدة إسلامية صدرت في عام ١٩٠٣م من عليجراه تحت رئاسة مولانا حسرت موهاني ، فكانت المقالات المطبوعة

في هذه الجريدة انحرافات في عيون البريطانيين ، فمنعوا صدورها وكتبت جريدة " علم وعمل " الصادرة من حيدرآباد في كلمة التحرير تقول : إن تناول موضوع الحقوق الاجتماعية بالبحث والنقاش والمطالبة بالحقوق لسيت جريمة .

أصدر محمد حامد حسرت صحيفة بإدارته في عام ١٩١٠م باسم " قيصر هند " التي كانت تحث الناس على نيل الحرية والاستقلال ، وكانت تنفخ فيهم روح الاستقلال أيضاً . وكانت تصدر جريدة من لكناؤ برئاسة مولانا وحيد الدين سليم باني بتي باسم مسلم غزت . وقد لعبت دوراً هاماً في تطوير الأوضاع الاجتماعية والسياسية .

أصبح مولانا ظفر علي خان مسؤولاً عن صحيفة (زميندار) بعد وفاة أبيه . وكانت مقالات مولانا ظفر علي خان مملوؤة بالحب الوطني والغيرة والحمية . وقد كتب مولانا آزاد مقالة بعنوان الجهاد في سبيل الحرية ، وتحدث فيها بوضوح عن أفكاره السياسية والظروف الاجتماعية التي تمر بها الهند آنذاك وكان ذلك يشكل تحدياً للإنجليز ، ونفخ في سكان الهند حبّاً شديداً لوطنه العزيز .

وفي تلك الأيام أصدر مولانا محمد علي جوهر جريدة (كامريد) و (همدرد) ، وقامت هذه الصحف الأردية بإثارة جذوة الحرية في نفوس أهل الهند ولا يوجد لها نظير في الصحف الأخرى في ذلك الوقت . كما أصدرت جمعية العلماء صحيفة أردية باسم " الجمعية " في عام ١٩٢٥م وكانت نموذجاً يتحدى في مجال الحرية والاستقلال . وأصدرت صحيفة يومية أخرى باسم " قومي آواز " من لكنؤ تحت رئاسة جواهر لعل نهرو وقامت هذه الجرائد والمجلات والصحف اليومية والأسبوعية بدور كبير ومثمر وبنّاء في استقلال الهند . وكانت تلك الصحف والجرائد والمجلات مملوءة بأبيات النهضة ، والمقالات . والذين ينكرون هذه الحقائق وخاصة مساهمة علماء الهند والجرائد والمجلات فهم في غفلة ساهون ، وهم في الواقع ينكرون الجميل – وأختم كلامي بهذه الأبيات ما ترجمتها :

(كلما افتقر الوطن إلى دم ساخن أصبحنا فداءً لذلك ، رغماً من ذلك ينكر أعداؤنا هذا الجميل ، ويزعمون أن لا حق لنا في هذا الوطن) .

صور وأوضاع

استغلال العصبيات الدينية لكسب الفوز في الانتخاب عمل غير جمهوري

الأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي

ألقى الرئيس الأمريكي دونالد ترمب أول خطاب أمام الكونغرس الأمريكي قام فيه بتغيير جديد لبياناته التي كان يدلى بها خلال الحملة الانتخابية التي يهاجم فيها المسلمين في أمريكا ، ويهدد بإخراجهم من أمريكا خاصة ، ثم قصر بيانه على سبع دول إسلامية .

طرح ترمب خلال خطابه تصوره السياسي والاقتصادي للبلاد وعلاقاتها الخارجية ، إلا أنه لم يقدم تنازلات تذكر في ثوابته ، وفي الخطاب الذي استغرق نحو ساعة وتخلّله تصفيق متكرّر فاق ٩٦ مرة ، دافع الرئيس الأمريكي بقوة عن قراره السابق بحظر دخول اللاجئين والمسافرين من سبع دول ذات غالبية مسلمة ، وقال : " لا يمكن أن نسمح لوطننا بأن يصبح مرتعاً للمتطرفين ، سنتخذ قريباً خطوات جديدة للحفاظ على أمننا ، ولمنع دخول أولئك الذين يريدون إلحاق الأذى بنا " .

وتطرق ترمب أمام الكونغرس باقتضابٍ إلى قضايا الدبلوماسية والدفاع ، لكن الرئيس الأمريكي الجديد الذي لا تزال سياسته الخارجية غير واضحة ، شدَّد على أنه سيتصرف أولاً لخدمة مصلحة بلاده ، وقال : " مهمتي لا تكمن في تمثيل العالم ، بل تمثيل الولايات المتحدة " .

في المقابل أقر ترمب بإن سياستنا الخارجية تستلزم تعهداً مباشراً ومتيناً وكبيراً مع الأسرة الدولية " . أما فيما يتعلق بالحرب ضد الإرهاب ، فقد أشار الرئيس الأمريكي إلى أنه سيعمل مع الحلفاء والأصدقاء في العالم الإسلامي على اقتلاع داعش ومكافحة الإرهاب ، وبعد أن تعهد ترمب بحماية الأمن الأمريكي من إرهاب الإسلام المتطرف اقترح الرئيس الجمهوري أن تعمل الولايات المتحدة مع دول حليفة مسلمة

للقضاء على تنظيم داعش الذي وصفه " العدو الفظيع " .

في سياق متصل تعتزم إدارة ترمب إصدار قرار جديد بخصوص الهجرة خلال الأيام المقبلة ، في الوقت الذي كشف فيه مسئول في البيت الأبيض عزم الإدارة على استثناء العراق من قائمة الدول السبع المذكورة في الأمر التنفيذي السابق التي شملت السودان وليبيا واليمن ، والصومال وإيران وسوريا والعراق ، وجاء هذا التوجُّه الجديد بعد نصيحة من مستشار الأمن القومي الأميركي هيربرت ماكماستر ، وتشمل التغييرات المتوقعة أيضاً استثناء اللاجئين السوريين من حظر السفر لأجل غير مسمى وتعديل وضعهم ليصبحوا مثل باقي اللاجئين بصفة عامة مع فرض تعليق لاستقبال كافة اللاجئين لمدة ١٢٠ يوماً " . (الشرق الأوسط ، ٢٠١٧/٠٣/٠٢م)

ويقول تقرير صحفي نشرته جريدة انكليزية أن الرئيس الأمريكي قال : إن مسئوليته الأولى هو الحفاظ على وحدة أمريكا وسلامتها ، وقال : إنه لا يعارض وصول أصحاب المهارات الفنية والكفاءات العلمية ، وقال : إنه سيتخذ سياسة التعاون والتشاور مع حلفائه ، وذكر في حلفاء أمريكا الدول الإسلامية التي لها صلة بأمريكا ، وقال: إنه ضد الإرهاب .

وأكد في خطابه على استمراره في الحفاظ على مصالح الجالية اليهودية .

ويشتمل هذا البيان على نقطتين مهمتين: أولاً: الحفاظ على مصالح اليهود ، وهم في أمريكا في الدرجة الثانية بعد المسيحيين ، ولا يشك أحد في مكانة اليهود في أمريكا ، فهم يحتلون مراكز حاسمة ، وعدد منهم في المستشارين للرئيس الأمريكي ، وقد كان القادة الأمريكيون يؤكدون أن حماية اليهود مسئولية أمريكا الأولى ، وبذلك كانت في مجلس الأمن كلما أثيرت مسئلة تتعلق بفرض عقوبات على إسرائيل ، تستعمل حق النقض .

وقد أفادت الصحف أن وفداً من الكونغرس بقيادة رئيس اللجنة الفرعية للأمن القومي في مجلس النواب " رون ديسانتوتس " يزور الآن إسرائيل لبحث نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس واعتبار القدس عاصمة دائمة لإسرائيل .

يُعَدّ ديسانتوتس من أبرز مؤيدي اقتراح نقل السفارة إلى القدس ، وكان جمع توقيعات أكثر من ١٠٠ نائب على رسالة وجهها إلى الرئيس الأمريكي دونالد ترمب قبل أيام من تنصيبه في يناير الماضي لمطالبته بنقل السفارة فوراً والاعتراف بالقدس عاصمة أبدية لإسرائيل .

وفي عام١٩٧٣م عندما دخلت قوات مصر المسلحة في عهد الرئيس المصري أنور السادات إلى داخل إسرائيل بعد عبور قناة السويس أسرعت أمريكا إلى إرسال قواتها ، وأقامت جسراً بين أمريكا وإسرائيل لمنع قوات مصر من الهجوم ،ثم نظمت معاهدة الصلح المعروفة بـ " معاهدة كيمب ديود " .

وقد واجه الرئيس المصري أنور السادات بسبب هذه المعاهدة التي استمرت مدة طويلة ، معارضة من الدول العربية الأخرى وعرفت هذه المعاهدة بـ " معاهدة الاستسلام " .

ولا يُستَبعد إعادة الرئيس الأمريكي مسئوليته للحفاظ على مصالح الجالية اليهودية .

أما إشارته إلى حلفائه من الدول الإسلامية فهي مبهمة لم يصرح فيها أسماء الدول .

ولا يختلف هذا البيان عن بيانات الرؤساء السابقين .

وقد أعاد الرئيس الأمريكي موقفه إزاء الهجرة وتقييدها ، لكنه أبدى موقفه إزاء اللاجئين لأسباب إنسانية وضغوط عالمية .

إن هناك فارقاً كبيراً بين أمريكا ودول أوربا ، أما الذين يتوجهون إلى أمريكا ، فهم إما أصحاب الأزمات وطلاب العلم أو أصحاب الكفاءات العلمية .

أما الدول الأوربية الأخرى فمعظم المتوجهين إليها هم الأيدي العاملة .

كذلك بعض المتوجهين إلى الدول الأوربية هم الذين يسافرون إليها للجوء السياسي لأنهم لا يجدون جو الأمن والسلام في بلدانهم التي توجد فيها نظم سياسية استبدادية ، كما كان في دول تابعة للنظام الاشتراكي كالعراق وسوريا ومصر خاصة .

وللهجرة أسباب مختلفة إنسانية وسياسية واقتصادية وعلمية ،وفي هؤلاء المهاجرين عدد كبير من المسلمين ، فلابد من التمييز بين مهاجر

ومهاجر .

أما ما يسمى بالإرهاب الإسلامي فهو يرجع إلى طبيعة الإنسان ، لا إلى تعاليم الإسلام ، فكل من يدرس الإسلام يعترف بأن الإسلام دين رحمة وإنسانية ، ومن يقارن بين ميثاق حقوق الإنسان وحقوق الإنسان في الإسلام ، يجد مطابقة بين تعاليم الإسلام وهذا الميثاق .

وقد أصبح من عادة الزعماء السياسيين أنهم ينسبون الإرهاب إلى العمل الإسلامي .

ومن يدرس الواقع اليوم فإنه يصدق أن تهمة الإرهاب أو وصف العاملين للإسلام بالإرهاب مجرد دعاية لا صلة لها بالحقيقة ، بل إن الإرهاب يوجد في الجاليات الأخرى ، بل في أوربا نفسها توجد عناصر الإرهاب .

إن مثل هذا الوضع كان قد نشأ خلال الانتخابات في الهند ، فأثار بعض المتشددين من زعماء حزب بهارتيا جانتا الحاكم نعرات مهددة للمسلمين ، فقال بعضهم : إن الهند ستتحول إلى دولة هندوسية ، لا مكان فيها للمسلمين ، وأصدر بعض الزعماء أن المسلمين سيطردون من البلاد أو يضطرون إلى قبول الديانة الهندوسية ، كل ذلك لكسب الانتخابات .

لقد أثار ترمب قضية المسلمين والإسلام خلال حملته الانتخابية لكسب أصوات المعاندين للإسلام ، ومثل ذلك حدث خلال الحملة الانتخابية في الهند ، فقد استغل بعض القادة السياسيين قضية الإسلام والمسلمين لكسب تأييد الأغلبية غير الإسلامية .

إن هذين الموقفين العالميين الأخيرين للفوز في الانتخاب ، يتطلبان أن يُنَصّ قانونٌ للانتخاب في النظم الديمقراطية ، فإن الديمقراطية تعارض قبل كل شيء التمييز بين مواطن ومواطن ، رغم كونها قائمة على أساس الجمهورية ، لكن الأقليات في النظم الجمهورية لها قوة ومكانة لائقة ، والنظام الجمهوري مسئول عن الدفاع عن الأقليات اللغوية والثقافية والدينية وإلا فما هو الفرق بين الديمقراطية والديكتاتورية وحكم الفرد ؟ .

إلى الإسلام من جديد

إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين

محمد فرمان الندوي

الإسلام دين العبادة والانقياد ، دين الطاعة والاستسلام ، دين يأمر أتباعه ببيع كل غال ورخيص في سبيل الله تعالى ، دين اشترى فيه الله أنفس المؤمنين وأموالهم بأن لهم الجنة ، دين تمرُّ طرقه بوهاد ونجاد ، فهو دين الابتلاء والامتحان ، دين الثبات على الحق ، والاستقامة على الصراط المستقيم ، دين يعلن في كتابه قول الله تعالى : لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلأُمُورِ . (آل عمران : ١٨٦) .

والتقوى لها درجات ومراتب ، فالتقوى عن الشرك ، والتقوى عن البدع ، والتقوى عن الشبهات ، وقد سأل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبي بن كعب عن حقيقة التقوى ، فقال : أما مررت يا أمير المؤمنين بطريق ذي شوك وقتاد ؟ قال : بلى ، قال : ماذا صنعت ؟ قال : شمرت أذيالي ومررت ، قال : ذلك التقوى ، وقال بعض العلماء : حقيقة التقوى أن يعبد الله فلا يعصى ، أن يطاع فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، وكذلك الصبر عبارة عن ترك الشكوى واستلذاذ البلوى ، قد ذكر الله تعالى جزاء الصابرين بقوله : إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب . (الزمر : ١٠).

ولا شك أن التقوى والصبر سلاحان قويان لدحر كل مصيبة ، وإزالة كل منكر ، وكلما ادلهمت المصائب ، واكفهرت الخطوب ، وكان الناس في حاجة إلى من ينقذهم منها ، ويُمسك بأيديهم إلى شاطئ النجاة ، كانت التقوى والصبر هما الأداتين المؤثرتين في مثل هذه الأوضاع، فكان صاحبهما في طمأنينة وهدوء لا يخطر بباله شيئ من الهم والغم ، ولا يتطرق إلى نفسه خوف ولا حزن ، وكانوا كما وصفهم الله تعالى : فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وقد ذكر القرآن الكريم روائع من أصحاب التقوى والصبر :

هذا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، ولا شك أنه الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم ، لكنه اجتاز في حياته عقبات كأداء ، وواجه في سبيله محناً شداداً ، لا يخرج من محنة إلا ويقع في محنة أخرى ، وكل ذلك من إخوته وبني جلدته ، ألقي في البئر ، ثم بيع في سوق مصر ، ومرَّ

بمرحلة عصيبة في قصر ملك مصر ، ثم زج به في السجن بريئاً من كل عيب ، ومكث هنا مدة ، هذا كله يحتاج إلى التقوى والصبر ، وقد حقق يوسف عليه السلام أسمى معانيهما ، حتى تبوأ عرش مصر ، ونال العزة والرفعة ، فقد قال بلسانه : إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (يوسف : ٩٠) .

هذا أيوب عليه السلام ، قد مرَّ في حياته بابتلاءات كثيرة ، واختبارات متتالية ، امتحنه الله عز وجل في أهله ، وماله وولده وجسمه ، لكنه صبر واحتسب ، واتقى الله سبحانه من المعاصي والمنكرات ، ولم يشك ولم يئن ، بل رضي بما قدر الله تعالى ، وشكا إلى الله سائلاً منه العفو : وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ، (الأنبياء : ٨٣) ، فاستجاب الله دعاءه ، وقدر له الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

الدنيا دار مصايب ومتاعب ، دار أفراح وأتراح ، دار آلام وأحزان، يتعرض الإنسان فيها للأزمات والبليات ، ويتصدى للحوادث والكوارث ، فمن جعل التقوى والصبر جنته نحو هذه المشكلات ، فاز في الدنيا والآخرة ، وكان مقبولاً لدى الخاصة والعامة ، وقد اجتاز أهل الإيمان بمراحل عصيبة في فترات مختلفة من الزمان ، وصعب عليهم قضاء الحياة في هذه الدنيا ، وقد لقوا بلاء عظيماً ، بحيث وضع منشار على رؤوسهم وجعلت جثتهم في قطعتين، كما ورد في الحديث : والله إن من كان قبلكم ليؤخذ الرجل فيحفر له الحفرة ، فيوضع المنشار على رأسه ، فيشق باثنتين ما يصرفه عن دينه أو يمشط بأمشاط الحديد ، ما بين عصبه ولحمه ما يصرفه عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب منكم من صنعاء إلى حضر موت لا يخشى إلا الله أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تعجلون (سنن البيهقي الكبرى : ١٧٤٩٨) ، فنال هؤلاء درجة الشهادة ، قال الله تعالى: مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً، (الأحزاب : ٢٣) ، وكان سبب نجاتهم التقوى والصبر ، وكذلك نال الفوز والفلاح المؤمنون الذين أحرقوا في النار ، فثبتوا ، واستقاموا ، واحتسبوا من الله الأجر الجزيل قال الله تعالى : قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلأُخْدُودِ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ . (البروج : ٤ – ٥) .

وبهاتين الميزتين نستطيع أن نقاوم كل فتنة ، ونواجه كل مصيبة، ونخوض في غمار الظروف والأوضاع ، وننال النجاح في الدارين . وفقنا الله تعالى للتحلي بهما في سائر الأوضاع والظروف .

إلى رحمة الله تعالى

(١) العالم الكبير الشيخ ملك عبد الحفيظ إلى رحمة الله تعالى

أفادت الأنباء بوفاة العالم الكبير الداعية الشيخ ملك عبد الحفيظ المكي ، في ١٧/ يناير عام ٢٠١٧م ، الموافق ١٨/ ربيع الثاني سنة ١٤٣٨هـ ، وذلك أثناء خطاب دعوي وتربوي كان يلقيه في أحد الاجتماعات الدينية ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وذلك إن دل فإنما يدل على حسن خاتمته ، بمشيئة الله تعالى ، شاهد على ذلك عدد كبير من أصحاب العلم والدين ، وحضرات المستمعين لخطابه ، كيف لا ؟ كان قد تلقى العلم والتربية من علامة الهند الكبير المحدث الجليل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي (رحمه الله تعالى) الذي مكث عنده في تربيته إلى مدة طويلة ، كأنه أحد أعضاء أسرته ، وقد أحبه المحدث الشيخ محمد زكريا (رحمه الله تعالى) ، فنال عنده ثقةً ، من نواحي العلم والدين والدعوة إلى الله تعالى ، حتى منحه إجازة التعليم والتربية ، وهو شاب ، فلما هاجر العلامة المحدث الكاندهلوي (رحمه الله تعالى) إلى المدينة المنورة والإقامة فيها ، إلى آخر أيام حياته وقد رافقه الحنين إلى أن يدفن في مقبرة المدينة المنورة بعد الوفاة ، وقد حقق الله أمنيته الصادقة في فجر القرن الخامس عشر الهجري .

كانت للراحل الكريم علاقة وطيدة مخلصة بسماحة الإمام الندوي رحمه الله وأعضاء أسرته جميعاً ، وخاصةً بالعلامة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي رئيس ندوة العلماء اليوم ، الذي كتب مقالاً بمناسبة وفاته ، يحتوي على محاسنه وفضائله ، ويُلقي ضوءً مشرقاً على حياته السعيدة التي عاشها في الحرمين الشريفين ، وفي ظل تربية العلامة المحدث الكاندهلوي (رحمه الله تعالى) .

ونحن إذ نعزي أصحابه وأعضاء أسرته وأصدقاءه ومحبيه على حادث وفاته ، نتضرع إلى الله تعالى أن يُكرمه بالمغفرة ، ويتغمده برحمته ويُسكنه فسيح جناته العالية ، ويُلهم الجميع الصبر على الحادث والدعاء الخالص للفقيد ، رحمه الله تعالى .

(٢) الدكتور صفدر سلطان الإصلاحي في ذمة الله تعالى

أفادت الأنباء بوفاة الدكتور صفدر سلطان الإصلاحي أستاذ كلية الطب بجامعة على جراه الإسلامية ومدير إدارة التحقيق والتصنيف للجماعة الإسلامية ، وأمير الجماعة الإسلامية في هذه الجامعة ، وذلك في ٢١/ من شهر جمادى الآخرة عام ١٤٣٨هـ ، يوم الأحد ، الموافق ١٩/ من شهر فبراير لعام

٢٠١٧م ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

كان للراحل الكريم ارتباط مخلص بالجماعة الإسلامية في الهند ، وكان من كبار العاملين لإنجاز برامجها الإسلامية ، في هذه البلاد ، وخاصة في جامعة علي جراه الإسلامية ، حيث كان أستاذاً بكلية الطب ، وأمير الجماعة المحلي في هذه الجامعة ، إنه كان الأمين العام لإدارة التحقيق والتصنيف الإسلامية ، التي أنجزت برامجها في مجال التحقيق والتصنيف الإسلامي بنجاح أمثل ، إنه بذل في ذلك مجهودات بالغة مخلصة كبيرة .

أصيب بحادثة اصطدام في " نوفيدا " المجاورة لمدينة دلهي ، وكان متجهاً إلى نيو دلهي للحضور في جلسة المجلس التنفيذي لإدارة التحقيق والتصنيف ، في مركز الجماعة الإسلامية ، وكان موعدها ١٩/ فبراير ٢٠١٧م ، فلما تأخر وصوله إلى جلسة المجلس التنفيذي اتصل أعضاؤها بمنزله في علي جراه ، وهنالك اطلع الناس على هذا الحادث ، الذي كان سبباً لوفاته.

ونحن إذ نعزي أمير الجماعة الإسلامية ورفاقه المخلصين وأعضاءها الكرام ، نبتهل إلى الله تعالى أن يتغمده بواسع رحمته ، ويجزل مثوبته على الخدمات الدينية التي قام بها من خلال إدارة التحقيق والتصنيف الإسلامية ، ويغفر له زلاته ويسكنه فسيح جناته ويلهم أهله وذويه الصبر على الحادث ، فإن الله يحب الصابرين .

(٣) السيد شهاب الدين في ذمة الله تعالى

انتقل إلى رحمة الله تعالى السيد شهاب الدين عضو البرلمان الهندي سابقاً ، وهو معروف بقيادته السياسية وبقضية هدم المسجد البابري ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

توفي يوم السبت صباحاً في ٤/ جمادى الأخرى ١٤٣٨هـ الموافق ٤/ مارس ٢٠١٧م بالغاً من العمر ٨٢/ عاماً ، بعد معاناة طويلة من المرض ومعالجات ناجعة ، ولكن قدر الله كان مقدوراً .

رحمه الله تعالى رحمة واسعة وغفر له زلاته ، وأسكنه فسيح جناته وألهم أهله وأصحابه والجميع الصبر والسلوان .

(والله على كل شيئ قدير) .

سننشر بمشيئة الله تعالى أخبار المهرجان التعليمي الذي أقامته دار العلوم نور الإسلام في جلفافور بدولة نيفال ، في العدد القادم .